شرح حديث

(لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم)

للأمير

أبي مصعب الزرقاوي

تقبله الله تعالى

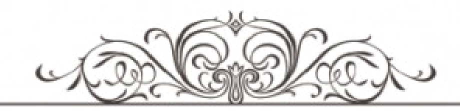
أحمد بن فضيل بن نزال الخلايلة

الطبعة الأولى - 1446 هـ





بسم الله الرحمن الرحيم



شرح حديث "لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ"

للأمير أبي مصعب الزرقاوي -تَقَبَّلَهُ الله تعَالَى-

أحمد بن فضيل بن نزال الخلايلة



الطبعة الأول ١٤٤٦هـ

مركز إنتاج الأنصار



مؤسسة صرح الخلافة



الفهرس

الحديث

قال رسولُ الله ﷺ: **"لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرِينَ علَى الحقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ"** (رواه مسلم).

أحاديث مقاربة بالمعنى:

وقال رسولُ الله ﷺ: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (رواه مسلم وأحمد).

وعن جابر بن سَمُرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: "لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا، يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" (رواه مسلم وأحمد).

ومن حديث عقبةَ بن عامر -رضي الله عنه- قال: قال ﷺ: "لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أَمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْر الله قَاهِرِينَ لعَدُوِّهِمْ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الساعَةُ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ" (رواه مسلم).

وعن عمران بن حصين -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أَمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ المَسِيحَ الدَّجَّال" (رواه أحمد وأبو داود والطبراني والحاكم، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي).

الباب الأول: القِتَالُ، قَدَرُ الطَّائِفَةِ الـمَنصُورَةِ

الحمـدُ للهِ معـزِّ الإسـلامِ بنصـره، ومُـذلِّ الشـركِ بقهـره، ومصـرِّف الأمـور بأمره، ومسـتدرجِ الكـافرين بمكـره، الـذي قـدر الأيام دولًا بعدلـه، وجعـل العاقبـة للمتقين بفضله، والصلاةُ والسلام على من أعلى اللهُ منارَ الإسلامِ بسيفه، أمَّا بعد:

فـإنَّ اللهَ سبحانَه وتعـالى خلـقَ الخلـق لعبادتـه واتّبـاعِ شـريعته، ولم يـتركهم هملًا، بـل أرسل إليهم رُسُلًا يدعونهم إليه، ويدلونهم عليه؛ فانقسم العبادُ إلى فريقين: فريقٍ هـداهُ الله بفضـله ورحمته، وفريـقٍ أضـلّهُ اللهُ بعلمـه وعدلـه، ومضـى قـدرُ الله وجـرت سنته أن يقع التدافع والصراع بين هذين الفريقين؛ الحقِّ وأنصاره، والباطلِ وأعوانه، وذلك على مر العصور، وكرِّ الدهور، وإلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها، {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٢].

فصل: اختلاف الحق والباطل

وذلك أن الحقَّ والباطل ضدان لا يجتمعان أبدًا؛ فوجودُ أحدِهما على أرض الواقع يسـتلزم -ولا بـد- محوَ الآخـر أو إضـعافه، بتجريـده من الأسـس الـتي يرتكـزُ عليهـا، والمبادئِ التي قيامه بها، فلا يتصور في ميدان الواقع أن يتعايشَ الحق والباطل معًا على أرضٍ واحدة من دون غلبة لأحدهما على الآخر، أو سعيٍ لتحقيق هذه الغلبة، ولو فُرِضَ أن الحق استكان حِقبة من الزمن، وأحجَمَ عن مزاحمة الباطل ومدافعته؛ فـإن الباطل لن يقابل هـذه الاستكانةَ إلا بصولةٍ يستعلي بها على الحق وأهله، يروم من خلالها النيـلَ منهم والقضـاءَ عليهم، أو على الأقـل تجريـدهم من أهم مـا يميزهم عن الباطل وأهله، عبر سلسلةٍ من التنازلات والـتي لا تبقي لهم من الحق غير اسمه، ومن

منهجه غير رسمه؛ ليغدو في نهاية المطاف جزءًا من مملكة الباطل، وذيلًا من أذياله، وبئست النهاية!

والقرآنُ الكريم يزخر بالآيات التي تُقررُ هذه الحقيقة وتأصِّلها؛ يقول الله سبحانه وتعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [إبراهيم: ١٣]، إنها حقيقةُ المعركة بين الحق والباطل، حقيقةٌ ثابتة مستقرة، لا تتغير بتغير الزمان، ولا تتبدل بتبدلِ المكان، فليس لأهل الأيمان من الرسل وأتباعهم عند ملل الكفر قاطبةً إلا أحدُ سبيلين: إمّا أن يُخْلُوا لهم الأرض بالقتلِ والتصفية والتشريدِ والطرد والإبعاد؛ ليعيشوا فيها كفرًا وفسادًا، وإما أن يتنازلوا عن الحقِّ الذي معهم، ويستسلموا للباطل وحزبه، ويذوبوا في مجتمعهم، وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدينِ لأتباعه.

وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ٦٨]، وقال تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ} [العنكبوت: ٢٤]، وقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠].

يقول سيِّد -رحمه الله-: (وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم؛ بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم، وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل، إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين [...]، وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل

ثابتًا: أن يردّوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحًا غيره، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها، والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام، وينبهها إلى الخطر؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد، والصبر على الحرب، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة، والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر)[١].

وتأمَّل قوله تعالى: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود: ٩١]، فرغم إقرار الباطل بضعف أهلِ الحق المادي، وخلوِّهم من أسباب القوة؛ فليس غير القوة الغاشمة التي لا تعرف أي معنى للرحمة، ولا تأبه بأي رابطة، {وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ}، بل عندما طلب منهم نبيهم شعيب -عليه الصلاة والسلام- أن يتركوهُ والطائفةَ التي آمنت معه، ويصبروا إلى أن يكون الله وحده هو الذي يحكم بين الطائفتين بأمر قدري من عنده سبحانه: أبوا إلا خيار الطاغوت في كل زمان ومكان، مع الحق وأهله؛ إما الطرد والإبعاد والقتلُ والنكال والعذاب، أو الفتنة عن الدين.

وقال الله تعالى حكايةً عن شعيبٍ عليه السلام: {وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: ٨٧-٨٨]؛ فالباطل لا يطيق وجود فئة تؤمن بالله وبرسالتِه في ديارِهم، وإن كانْت هذه الفئة فئةً ضعيفة، مجردةً من كلِّ أسبابِ القوَّةِ الماديّة، بل ولو كانت هذه الفئةُ تدعو الباطلَ إلى الصبرِ إلى أن يكون الله هو الحكمُ بما يقدره بينهما!

[١] في ظلال القرآن (ج١/ص٢٢٧-٢٢٨).

فصل: الصراع حتميٌ بين الحق والباطل

وقد اقتضت حكمةُ الله -سبحانه- ابتلاءً لعباده وتمحيصًا لهم، أن يتسلط الباطلُ وحزبُه على الحقّ وأهله تسلطًا قدريًّا؛ قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١١٢]، وهذا قضاءٌ كوني واقعٌ لا محيص عنه، ولا دافع له، فكل من استمسك بغرز هذا الدين، وأخذ على عاتقه تطبيقَ حكمه بين العالمين: فلا بد أن ينالهُ قسطٌ من ذلك التسليط، ونصيبٌ من تلكم العداوة، ويتضحُ ذلك جليًّا في قول ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: (لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلاَّ عُودي)[١]، فكل من سار على درب النبي ﷺ وأصحابِهِ -رضوان الله عليهم-، ودعا إلى مثل ما كانوا عليه: فلا بدَّ أن يناله نصيب من العداوة، ويصيبَه شيء من الأذى من الباطل وأهله بحسب حاله والتزامه بمنهجهم، ومنشأ هذه العداوة وسببُها: أن مجرد رؤيةِ أهل الباطل للحق، وإن كان الحق في أضعف حالاته وأعجزها: تذكّر أهل الباطل بباطلهم، فتقطع عليهم نشوتهم، وتُنغّصُ عليهم تمتعهم بشهواتِهم، وتوقفهم مع أنفسهم لتفضح هذه الأنفس، وتبينَ ضعفها، وزيف قوتها وذلتها، حيث غدت عبدة ذليلة مهانة لشهواتها وأهوائها، وقال تعالى: {قلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة: ٥٩]، فنقمتهم على المؤمنين، كما هو صريحُ الآية: لا سببَ لها غيرَ قيامِ المؤمنين بدينهم، وتمسُّكِهم به، مع عدم قدرتهم على فعل الشيء نفسه؛ لفسقهم المانع لهم من ذلك، وهذا مما يملأُ قلوبَ أهل الباطل حقدًا وغيضًا تتقطع معه قلوبهم، وتتحرق معه نفوسهم، حيثُ هذا العلو والسمو والذي لا يستطيعونه: يذكّرهم ويشهد عليهم بانحطاطهم وسفلهم، فيودّون أن لو فتن أهل الحق عن حقهم

[١] رواه البخاري.

وشاركوهم في باطلهم، كما قال العليم بمكنون صدورهم: {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء} [النساء: ٨٩]؛ ولذا فإن أهل الباطلِ لا يجدون أمامهم فرارًا مما يجدون غير التمادي في سياسة البطش والتنكيل والتشريد والتقتيل، غير مراعين لحرمة ولا حافظين لعهدٍ ولا ذمة؛ تشفّيًا من الحق وأهله، وإرضاءً لأنفسهم المهزومة، وانتصارًا لها.

وإذا كان قد سبق في قضاء الله معاداةُ الباطل للحق وأهله وتسلطهم عليهم بأنواع الأذى وألوان العذاب؛ فقد أمر سبحانه أولياءه بإشهار سيف العداوة والبغضاء في وجه الباطل وأهله، ورفعِ لواء البراءَةِ من الكفر وحزبه؛ قال سبحانه: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: ٤]، قال الشيخ حمد بن عتيق -رحمه الله-: (وها هنا نكتةٌ بديعة في قوله تعالى: {إِنَّا بُرَءاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}؛ وهي أن الله تعالى قدم البراءة من المشركين العابدين غير الله، على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله؛ لأن الأول أهم من الثاني، فإنه قد يتبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها، فلا يكون آتيًا بالواجب عليه، وأما إذا تبرأ من المشركين: فإنَّ هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم)[١].

إلى أن قال: (فعليك بهذه النُكتة؛ فإنها تفتح لك بابًا إلى عداوة أعداء الله، فكم من إنسان لا يقع منه الشرك، ولكنه لا يعادي أهله، فلا يكون مسلمًا بذلك، إذ ترك دين جميع المسلمين! ثم قال تعالى: {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}، فقولُه: {وَبَدَا} أي: ظهر وبان، وتأمل تقديمَ العداوة على البغضاء؛ لأنَّ الأولى أهمُّ من الثانية، فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم، فلا يكون آتيًا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة

[١] سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين والأتراك، (ص٢٥-٢٦).

والبغضاء، ولا بد أيضًا من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين، أي: ظاهرتين بيّنتين)[٢].

فصل: أنواع الجهاد ضد الباطل

وقد اتخذ جهادُ أهل الحق للباطل أشكالًا متنوعة، وصورًا متعددة؛ فتارةً يكونُ بالقلم والبيان، وهو جهاد أهل الحق للمنافقين وأهل الزيغ والمبتدعين؛ بكشف خبيئتهم، وتبيين باطلهم، وزيفِ مذهبهم، قال تعالى: {فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان: ٥٢]، وتارةً يكون بالسيف والسنان، وهو جهادُ أهل الحق للكفرة والمرتدين؛ حتى يدخلوا في الإسلام، أو يخضعوا ويُذعنوا لحكمه، قال تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩]، وقال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ} [الأنفال: ٣٩].

وأهلُ الحق يمارسون الجهاد بنوعيه: جهادَ البنان، وجهادَ السنان، ولكنهم يوقنون أن هذا الحق الذي يحملونه لا بد له من درع يحميه، وقوة تنصره وتسانده، وإلا فَقَدَ محلّه من العقول وتأثيره في القلوب مهما كانت حججه قاطعة وبراهينه ساطعة؛ ولهذا أمر اللهُ سبحانه أهلَ الحقِّ بإعداد القوة لإرهاب أهل الباطل ومنعهم من التحرش بأهل الحق والتعدي عليهم، قال تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال: ٦٠].

[٢] المرجع السابق.

ولهذا كان دينُ الله الحق يقومُ على الكتابِ والسيف؛ فالإسلامُ دين الحق لا يقوم إلا على ساقين: علمٍ وجهاد، فإذا اختل أحدهما؛ اضطرب حبله وفسد نظامه، وتمكن منه أعداؤه يفعلون به ما يشاؤون، فإن قوام الدين بالكتاب الهادي والحديد الناصر، كما قال الله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥].

ولقد أحسن من قال في مثل هذا:

وَما هُوَ إِلّا الوَحيُ أَو حَدُّ مُرهَفٍ *** تُزيلُ ظُباهُ أَخدَعَي كُلِّ مائِلِ

فَهَذا دَواءُ الداءِ مِن كُلِّ جاهِلٍ *** وَهَذا دَواءُ الداءِ مِن كُلِّ عاذِلِ[1]

فالعاقِلُ ذو الفطرة السليمة ينتفع بالبينة، ويقبل الحق بدليله، أما الظالم التابع لهواه فلا يردَعُه إلا السيف، فالحقُّ الذي لا يملكُ القوّةَ ليطبقَ في واقع الحياة، ودنيا الناس: حقٌّ ضائع، مهما بلغت براهينُه، وقوَّةُ حججه، وسطوعُ أدلته، بل وكونُه البيانَ الذي لا يقهر، والحقَّ الضائع لا معنى له ولا قيمة؛ حيث يظل حبيسًا مقهورًا: لا يجد الناسُ له أثرًا، ولا يسمعون له صوتًا، إلا همهماتٍ ضعيفة مشوهة بفعل الباطل وعلوّه.

متَى تَجْمَعِ القَلْب الذَّكِيَّ وصارِمًا *** وأنفًا حِميًّا تَجْتَنِبْكَ المظالِمُ[2]

---

[1] بيتين من قصيدة لأبي تمام في مدح المعتصم، تصرف فيهما الزرقاوي. ديوان أبي تمام (ص٢٤٩).

[2] عزاه أبو علي القالي في الأمالي (ج٢/ص١٢٢) إلى عمرو بن براقة الهمذاني، وعزاه ابن قتيبة في عيون الأخبار (ج١/ ص٢٣٧) إلى مالك بن حريم.

وقد قال الفاروق المحدثُ الملهم -رضي الله عنه-: (لَا يَنْفَعُ كَلِمَةُ حَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ)[١]، وأولى الناس وأحقهم بالعلم هم أهل الجهاد، وأولى الناس وأحقهم بالجهاد هم أهل العلم، وهذا ما جاء به رسول الله ﷺ.

وقد جاء في الأثر: (صِنْفانِ إذا صَلحوا صَلحَ الناسُ: العلماءُ والأمراء)[٢].

وما أدق قول الغزالي -رحمه الله-: (إنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرةِ، ولا يتمُّ الدينُ إلا بالدُّنيا، والملكُ والدينُ توءمان، والدينُ أصلٌ والسلطانُ حارسٌ، وما لا أصلَ لهُ فمهدوم، وما لا حارس لهُ فضائعٌ)[٣].

دعا الْمُصْطَفى دهرًا بِمَكَّة لم يجب *** وَقد لَان مِنْهُ جَانب وخطاب
فلما دعا والسيفُ صلتٌ بكفه *** [له أسلموا] واستسلموا وأنابوا[٤]

والنبي ﷺ الذي جاء بالكتاب والسنة والدعوة إليهما، هو كذلك ﷺ الذي جاء بالسّيف وأمر به وحرض عليه قولًا وفعلًا؛ قال ﷺ: "بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"[٥]، وقد قال ﷺ أيضًا: "إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ؛ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، فَقَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقُ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ

---

[١] رواه البيهقي في السنن الكبرى.

[٢] رواه أبو نعيم في الحلية (ج٤/ ص٩٦) وابن عبد البر في الجامع (ج١/ ص٦٤١) من طريق محمد بن زياد اليشكري عن ميمون بن مهران عن ابن عباس مرفوعًا، (ضعفه الحافظ العراقي ووضعه غيره بعلة محمد بن زياد).

[٣] إحياء علوم الدين، (ج١/ص٦٧).

[٤] بيتان لقصيدة إبراهيم الهندي اليمني. انظر: تاريخ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، الوزير الصنعاني، (ص٣٤٧-٣٤٨)، وسلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، ابن معصوم الحسني (ص٢٨٠).

[٥] رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود بعضه (احتج به أحمد وجوده ابن تيمية في الاقتضاء. وقال الذهبي في السير، (ج١٥/ ص٥٠٩): إسناده صالح. وصححه العراقي في تخريج الإحياء، (ج١/ ص٢١٧)، وحسنه ابن حجر في الفتح، (١٠ج/ ص٢٨٢). لكن ضعف سنده السخاوي – وغيره– في المقاصد: (ص٤٠٧). وروى البخاري بعضه: "جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي".

جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ"[١]، وهو ﷺ القائل: "وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فِي سَبيلِ اللهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ"[٢].

إن حياته ﷺ كانت تمازُجًا لا يقبلُ الانفكاك بين التعليم والدعوة وبين القتال في سبيل الله، حتى أنه ﷺ خرج بنفسه للغزو سبعًا وعشرينَ مرة، مدةَ العشر سنوات التي قضاها عليه الصلاة والسلام في المدينة، أي بمعدل ثلاثِ مراتٍ في السنة الواحدة، فضلًا عن السرايا التي أمر بإرسالها ولم يخرج معها، وهذا يوضح بجلاءٍ أنّ القتالَ في سبيلِ الله هو المحور الذي كانت تدور عليه حياةُ الصدرِ الأول.

ومن أسمائه التي سُمي بها ﷺ: الضَّحوكُ القتَّال[٣]؛ قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (اسمه في التوراة: أحمد الضَّحُوك القَتَّال، يركب البعير، ويلبس الشَّمْلة، ويجتزئ بالكِسْرَة، سيفه على عاتقه)[٤].

قال الماوردي -رحمه الله- وهو يتحدث عن فضائله ﷺ؛ منها: (انتصابه لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته، وهو في قطب مهجور، وعدد محقور، فزاد به من قل، وعز به من ذل، وصار بإثخانه في الأعداء محذورًا، وبالرعب منه منصورًا، فجمع بين التصدي لشرع الدين حتى ظهر وانتشر، وبين الانتصاب لجهاد العدو حتى قهر وانتصر، والجمعُ بينهما مُعوِزٌ إلا لمن أمدَّهُ اللهُ بمعونته، وأيَّدهُ بلُطفِه)[٥].

[١] رواه مسلم وأحمد والطبراني والبيهقي.
[٢] رواه مسلم وأحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه.
[٣] قال ابن فارس: سمّي به لحرصه على الجهاد ومسارعته إلى القتال.
[٤] رواه ابن فارس في أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها (ص٣١، ٣٧). وانظر: تفسير السمعاني (ج٥/ص٢٩٦) عن كعب موقوفًا.
[٥] أعلام النبوة (ص٢٣٠).

وهذا التمازج الذي لا يقبل الانفكاك بين الكتاب والسيف، الذي كان عليه ﷺ: هو ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم من طبيعةِ هذا الدين وما جاء به، وقد قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: (وسيوفُ المسلمين تنصرُ هذا الشَّرع وهو الكِتاب والسُّنةُ؛ كما قال جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-: (أمرنا رسول الله ﷺ أنَّ نضرِب بهذا -يعني السَّيف- من خرج عن هذا -يعني المصحف-)[1])[2].

فصل: جهاد أهل العلم

ومن ثم؛ فالإسلام يُسجل تاريخ عزِّهِ، ويسطر صفحات مجده أهلُ العلم المجاهدون، ولقد كان الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم-، وهم من سجلوا المجد صدر هذه الأمة علماء دعاةً مجاهدين، لم يُقْعِدهم العلمُ عن الدعوةِ والجهاد، بل كان علمهم وجهادهم متلاحمين متمازجين أعظمَ ما يكون التلاحم والتمازج، فكان المجد في أعقابهم، والعزُّ في إثرهم، وكان علمُهم حجة لهم لا عليهم، وهكذا كان دور أصحاب النبي ﷺ، وهذا كان أملهم هداية الخلق إلى الحق مع تقويم من أعرض وتعدى، لا عملَ لهم في حقيقةِ الأمر إلا هذا، فلما توفي رسول الله ﷺ خرجت جموع الصحابةِ لقتال من ارتدّ من العرب عن الإسلام، ثم ما لبثوا أن انتشروا في الآفاق دعاةً مجاهدين يبلغون الإسلام بسيوفهم وبيانهم، ولقد حضَرَ حجَّةَ الوداع مع الرسول ﷺ أكثر من مئة ألف من الصحابة رضي الله عنهم، بينما المدفونون في

---

[1] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج٥٣/ص٢٧٩)، ورواه سعيد بن منصور والحاكم بلفظ آخر ليس من قول جابر وصححه الحاكم على شرط الشيخين.

[2] مجموع الفتاوى، (ج٣٥/ص٣٦٥).

البقيع منهم لا يجاوز عددهم المئتين وخمسين صحابيًّا، أما الكثرة الكاثرة فقد قضوا نحبهم في بلاد الله البعيدة جهادًا في سبيل هذا الدين وتمكينًا له في الأرض، قال الإمامُ الأوزاعي -رحمه الله-: (كان يقال: خمسٌ كان عليها أصحابُ محمد ﷺ والتَّابعون بإحسانٍ: لُزومُ الجماعة، واتِّباعُ السُّنَّة، وعمارة المسجدِ، وتلاوةُ القرآن، والجهاد في سبيل الله)[١].

ولقد سار على نهج الصحابة واقتفى أثرهم بين العلم والدعوة والجهاد أئمة الطائفة المنصورة التابعونَ لهُم بإحسانٍ؛ ليبرهنوا على عظمة هذا الدين في صنعِ الرِّجال، وأنها عظمة تتجاوز حدودَ الزمانِ والمكان، فما أروعَ أن يُسَجِّل العالِمُ مجدَ الإسلام وعزَّهُ بمداده ودمه! والنماذج هنا كثيرةٌ جدًّا يضيق المقام بذكرها؛

- فهذا الإمام العلم سيد التابعين سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى-، أحد فقهاءِ المدينة السبعة: خرج إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه؛ فقيل له: (إنَّك عليل!)، فقال: (استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنني الحرب: كثَّرتُ السواد، وحفظتُ المتاع)[٢].

- وقال العجلي في ترجمة المحدث الكبير أبي إسحاق الفزاري -رحمه الله-: (كان ثقةً، رجلًا صالحًا، صاحبَ سنة، وهو الذي أدَّب أهل الثغر وعلمهم السنة، وكان يأمرهم وينهاهم، وإذا دخل الثغرَ رجلٌ مبتدعٌ: أخرجه)[٣].

- وقال الذهبي في ترجمة عبد الله بن المبارك: ([الإمامُ] الحافظ العلاَّمة شيخ الإسلام فخر المجاهدين قدوة الزاهدين، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم المروزي [...]، والله إني لأحبه في الله، وأرجو الخير بحبه، بما أمنحه الله من التقوى، والعبادةِ

---

[١] رواه أبو نعيم في الحلية (ج٦/ص١٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (ج٤/ص٣٨٤).

[٢] نقله الثعلبي في تفسيره عن الزهري دون سند، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (ج٥/ص٤٩)، وتناقله المفسرون من بعد كذلك.

[٣] الثقات، (ج١/ص٢٠٥).

والإخلاص والجهاد، وسعةِ العلم والإتقان، والمواساة والفتوة، والصفات الحميدة)[1]، وعن محمد بن فضيل قال: (رأيتُ عبد الله بن المبارك في المنام؛ فقلت: أيَّ الأعمال وجدتَ أفضل؟ قال: الأمر الذي كنتُ فيه، قلتُ: الرِّباط والجِهاد؟ قال: نعم)[2].

- وقال الذهبي في ترجمةِ أسد بن الفرات -رحمه الله تعالى-: (الإمامُ، العلاَّمة القاضي، الأمير، مقدَّمُ المجاهدين [...]، وكان مع توسُّعِه في العلم فارسًا، بطلًا، شجاعًا، مقدامًا، زحف إليه صاحبُ صقلِّيَة في مائةِ ألفٍ وخمسين ألفًا، قال رجلٌ: فلقد رأيتُ أَسدًا، وبيده اللِّواء يقرأُ سورة يس، ثمَّ حمل بالجيش، فهزم العدوَّ، ورأيتُ الدَّم، وقد سال على قناة اللِّواء، وعلى ذراعه، ومرض وهو محاصِرٌ سَرَقُوْسِيَةَ)[3].

- وقال الذهبي في ترجمة أبي العرب: (محمَّد بن أحمد بن تميمٍ، العلاَّمة المفتي، ذو الفنون [...]، وكان أحد من عقد الخروج على بني عبيد في ثورة أبي يزيد عليهم، ولـمَّا حاصروا المهديَّة: سمع النَّاس على أبي العرب هناك كتابي الإمامة لمحمِّد بن السحنون، فقال أبو العرب: كتبتُ بيدي ثلاثة آلاف وخمس مائة كتاب، فوَ الله لقراءة هذين الكتابين هنا أفضلُ عندي من جميع ما كتبت)[4].

- وقد ذكر القاضي عياض -رحمه الله تعالى- أنه في هذا الخروج على الدولة العبيدية لم يتخلّف من فقهاءِ المدنيين المشهورين إلا أبو ميسرةَ لعماه، ولكنه مشى شاهرًا للسلاح في القيروان مع الناس؛ لاجتماع المشيخة على الخروج[5].

[1] طبقات الحفاظ، (ج١/ص٢٠٢).
[2] رواه ابن أبي الدنيا في المنامات (ص٥٣).
[3] سير أعلام النبلاء، (ج١٠/ص٢٢٥، ٢٢٧-٢٢٨).
[4] سير أعلام النبلاء، (ج١٥/ص٢٩٤-٢٩٥).
[5] ترتيب المدارك وتقريب المسالك، (ج٥/ص٣٠٤).

– وذكر الذهبي –رحمه الله– أنه في موقعة واحدة مع العبيديين استَشْهَد خمسة وثمانون نفسًا من العلماء والزُّهَّاد[1]، ويوم أن نهضت الأمة لجهاد الصليبيين إعلاءً لكلمة الله، ثم ردًّا لأراضيها السليبة، وحقوقِها المضاعة: كانَ العلماءُ العاملون في مقدمةِ ركب الجهاد، وأُسر منهم من أُسر، وقُتل منهم من قُتل.

– قال ابن خلكان: (حتى وافى –أي السلطان– الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم، فلما انهزموا لم يكن لهم حصنٌ قريبٌ يأوون إليه، فطلبوا جهةَ الديارِ المصرية، وضلّوا في الطريق وتبددوا، وأُسر منهم جماعة؛ منهم: الفقيهُ عيسى الهكّاري، وكان ذلك وهنًا عظيمًا جبرهُ الله تعالى بوقعة حطينَ المشهورة)[2]، وقال ابن كثير عن هذه الوقعة: (وأُسر الفقيهان الأخوان: ضياءُ الدين عيسى وظهير الدين، فافتداهما السلطان بعد سنتين بتسعين ألف دينار[3])[4].

– ولما توجَّهَ المسلمونَ لفتح بيت المقدس: شارك العلماء بقوّة، حتى قيل بأنّه لم يتخلف أحدٌ من أهلِ العلم عن الحضور والمشاركةِ في الفتح، قال ابن كثير: (وطار في الناس أَنَّ السلطان عزم على فتحِ بيت المقدس، فقصده العلماء والصالحون تطوعًا، وجاؤوا إليه)[5]، وكان على رأسِ هؤلاء العلماء المجاهدين للصليبيين المشاركين في فتح بيت المقدس وغيره من الغزوات: المقادسة الحنابلة خصوصًا عمداؤُهم الكبار رحمهم الله تعالى؛ كالشيخ العالم العامل الزاهد القدوة أبي عمر المقدسي، وأخيه الإمام الموفق صاحب المغني، وابن خالهم الحافظِ الكبير عبد الغني، وأخيه العماد[6].

[1] سير أعلام النبلاء، (ج١٥/ص١٥٣).
[2] وفيات الأعيان، (ج٧/ص١٦٨).
[3] في الكامل والروضتين: بعد سنين بستين ألف دينار. وفي طبعة دار هجر: سبعين ألف دينار.
[4] البداية والنهاية، (ج١٦/ص٥٢٣).
[5] المرجع السابق، (ج١٦/ص٥٨٤).
[6] لم أجده في المصادر التاريخية.

– وأما جهادُ شيخ الإسلام ابن تيمية للتتار؛ فهو علمٌ في رأسه نار؛ قال ابن كثير –رحمه الله– في كلامه على هجوم التتار على دمشق: (وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوارِ؛ يُحرِّضُ النَّاس على الصَّبرِ والقتالِ، ويتلو عليهم آياتِ الجهاد والرِّباط)[١]، وقال عنهُ الذهبي: (نصرَ السُّنَّة بأوضح حُججٍ وأبهر براهين، وأُوذي في ذاتِ الله من المخالفين، وأُخيف في نصر السُّنَّةِ المحضةِ، حتَّى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التَّقوى على محبَّته، والدُّعاءِ له، وكبت أعدائه، وهدى به رجالًا كثيرة من أهل الملل والنِّحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، وأحيى به الشَّام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم، [خصوصًا في كائنة التتار ...][٢]، وهو أكبرُ من أن يُنبِّه على سيرته مثلي، فلو حلفتُ بين الرُّكنِ والمقام: لَحلفتُ أنِّي ما رأيت بعينيَّ مثله، وأنَّه ما رأى مثل نفسه)[٣].

فصل: بطلان الفصل بين العلم والجهاد

أما الفصلُ بين العلمِ والجهاد، والدعوةِ باللسان والدعوة بالسنان: فحاشا أن يكون منهجَ الطائفةِ المنصورة؛ إذ هو فصامٌ نكد، وطامّةٌ كبرى، وبدعةٌ منكرة، ودخنٌ في الدين، أورث ما يُدمِي القلب، ويُدمِع العين، ويملأ النفوس حسرة وأسى! وإن المتأمِّلَ لسيرة النبي ﷺ، ليَلحَظُ أن النبي ﷺ ومنذ مطلع فجر هذه الدعوة يسعى لامتلاك أسباب القوة، ويتجلى ذلك واضحًا في عرضه ﷺ نفسَهُ في تلك المرحلة المكية على القبائل بُغيَةَ أن يجدَ قبيلةً تقومُ دونَه بسيوفِها، وتقاتلُ عنه ليتمكنَ من المضي في أمر ربه؛ قال أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: (لـمَّا أمرَ الله نبيَّهُ ﷺ أن يعرضَ نفسهُ على قبائل العرب؛ خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى،

[١] المرجع السابق، (ج١٧/ص٧٢٧).

[٢] اختصار من ابن سمحان نقله الزرقاوي في الصواعق المرسلة الشهابية (ص٢١٢).

[٣] في الأصل هذا النص في معجم الشيوخ للذهبي، لكن لا يوجد في معجم الشيوخ الكبير. نقل قول الذهبي، ابن راجب في ذيل طبقات الحنابلة (ج٤/ص٤٩٧).

حتَّى دفعنا إلى مجلسٍ من مجالس العرب، فتقدَّمَ أبو بكر، وكان نسّابةً، فقال: ممَّن القوم؟

فقالوا: من ربيعة، قال علي: ثم انتهينا إلى مجلسٍ عليه السَّكينةُ والوقارُ، فتقدَّم أبو بكر، وكان مقدَّمًا في كل خيرٍ، وقال: ممَّن القوم؟

فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي وأمِّي أنت يا رسول الله؛ ما وراءِ هذا القوم غرٌّ هؤلاء غررٌ قومهم! وفيهم مفروق بن عمروٍ، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنُّعمانُ بن شريكٍ، فقال أبو بكر: كيف العددُ فيكم؟

فقال مفروقٌ: إنا لنزيد على ألفٍ، ولن يُغلب ألفٌ من قلةٍ، فقال أبو بكرٍ: وكيف المنعةُ فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد، ولكلِّ قومٍ جِدٌّ؛ قال أبو بكر: كيف الحرب بينكم وبين عدِّوكم؟

فقال مفروقٌ: إنَّا لأشدُّ ما نكون غضبًا حين نلقى، وإنَّا لأشدُّ ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنَّا لنؤثرُ الجيادَ على الأولاد، والسِّلاح على اللِّقاح، والنَّصرُ من عند الله، يديلنا مرَّةً، ويديلُ علينا أخرى، لعلَّك أخو قُريشٍ؟

قال أبو بكر: وقد بلغكم أنَّه رسول الله ﷺ، فها هو ذا، قال مفروقٌ: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، قال: فإلامَ تدعو يا أخا قريشٍ؟

قال: "أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"، فقال المثنّى: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريشٍ، وإني أرى هذا الأمر الَّذي تدعو إليه ممَّا تكرهه الملوكُ، فإن أحببتَ

أن نؤويك وننصرك ممَّا يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: "مَا أَسَأْتُمْ فِي الـرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلا مَنْ أَحَاطَهُ اللَّهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ")[1].

والحديثُ ظاهر الدلالة بأنه ﷺ كان ينشد السيف الذي ينصر به دعوته، بل لما أعلن القوم استعدادهم أن ينصروه ﷺ من العرب دون الفرس؛ رفض ﷺ مبايعتهم مصرًّا أن تكونَ النصرة بالسيف مطلقة على كل من قد يقف أمام الدعوة من عرب أو عجم، ألا فليتأمل الذين يريدون نصرة الدين بقتال الصليبيين دون قتال أعوانهم من بني جلدتنا من المرتدين: ألهم في هذه النصرة حظٌّ أو نصيب؟!

إنما أمر الله سبحانه وتعالى من البراءةِ من المشركين والعداوةِ للكافرين له صور متنوعة، وأشكال متعددة؛ لكن أعظم مظاهره وأبرزَ معالمه على الإطلاق هو القتالُ والجهادُ في سبيلِ الله، ولكنه شاقٌ عسير على النفوس، ولذلك لم يتصدّ لهُ إلا طائفةٌ من أهل الحقّ اصطفاها الله سبحانه وتعالى، هذه الطائفة خطت لنفسها المضي في طريقٍ تقاعسَ عنه الجمُّ الغفير، وأحْجَمَ عن سلوكِ دربه الكثير، طريقٍ مكروهٍ لقلوب البريات، محبوبٍ لخالق الأرض والسماوات، طريقٍ قامت أرضهُ على الجماجم والأشلاء، ورُويت تربته بطاهر الدماء، طريقٍ بدايته آلام ومشاق وأحزان، وخاتمته نعيمٌ وراحةٌ وغُفران، طريقٍ السير فيه عظيمُ التكاليف؛ مفارقةٌ للأهل والأوطان، هجر للأحباب والخلان، هجرة للواحد الديان، طريقٍ كَثُرَ عنه المخذلون، وعَظُم فيه المخالفون، طريقٍ مُمحِّصٍ للقلوب، وفاضحٍ للنُّفوس، إنّه طريقُ القتال، وسبيلُ النِّزال، يا لَهُ من طريق موفّقٌ من هُدِي لسلوكه، محرومٌ والله من ضلَّ عن سبيله!

[1] ذكره الزرقاوي مختصرًا. رواه ابن حبان في الثقات (ج١/ص٨٠-٨٨)، ورواه بنحوه أبو نعيم في الدلائل (ص-٢٨٢) والحاكم والبيهقي في الدلائل (ج٢/ص٤٢٢) وابن عساكر في تاريخه (ج١٧/ص٢٩٣). قال القسطلاني في المواهب: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بإسناد حسن. وحسنه ابن حجر في الفتح. وقال ابن كثير: هذا حديث غريب جدًّا كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب، وقد ورد هذا من طريق أخرى.

قال رسولُ الله ﷺ: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"[١]، وعن جابر بن سَمُرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: "لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا، يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"[٢]، ومن حديث عقبةَ بن عامر -رضي الله عنه- قال: قال ﷺ: "لا تَزَالُ عصَابَةٌ مِنْ أَمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْر الله قَاهِرِينَ لعَدُوِّهمْ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الساعَةُ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"[٣]، وعن عمران بن حصين -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تَزَالُ طَائفَةٌ مِنْ أَمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمْ المَسِيحَ الدَّجَّال"[٤].

كلماتٌ من نور الوحي ومعين الرسالة؛ ترسم بريشة الحقيقة سبيل هذه الطائفة المصطفاة، وتحددُ معالم طريقها، وعنوانَ منهجِها، ودامغةً في الوقت نفسه كل متخاذل من أهل فقه الذل والصغار، وتقعيد الخنوع للواقع وضغطه؛ فالقتال في سبيل الله شرطُ الطائفةِ المنصورة، وأساس صحة الانتسابِ إليها، وإن رغمت أنوف! إنه القتال قدرُ كل من أراد الانتساب لهذه الطائفة المنصورة، وقولهُ ﷺ: "لا تزال" و"يقاتلون" و"حتى يقاتل آخرهم الدجال": يدلُّ على أن هذه الطائفةَ المقاتلة طائفةٌ ممتدة كحبَّاتِ العقد يأخذ خلفُها عن سلفِها، ويفضي سابقها للاحقها في تتابع واتصالٍ تامين ليس بينهما فراغ؛ لتظل الرايةُ مرفوعة دائمًا وأبدًا، فهي وحدةٌ واحدة، لها أول ولها آخر عبر عمر الأمة كله، وقد ترجم كثيرٌ من الأئمة لأحاديث الطائفة المنصورة بما يدل على ما ذكرناه من كون القتال قدر الطائفة المنصورة؛ قال الإمام أبو داود في سننه: (باب في دوام الجهاد)، وقال ابنُ الجارود -رحمه الله- في المنتقى:

---

[١] رواه مسلم وأحمد.

[٢] رواه مسلم وأحمد.

[٣] رواه مسلم.

[٤] رواه أحمد وأبو داود والطبراني والحاكم، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(باب دوام الجهاد إلى يوم القيامة). هذا القتال هو أخص أوصافِ أهل هذه الطائفة المنصورة، وألصقُها بهم؛ فهو شعارهم ودثارهم، وهو دنياهم وآخرتهم، وهو فراغهم وشغلهم، وهو حلهم وترحالهم، عكفوا عليه، وتنادوا إليه، فكان التسابق زرافاتٍ ووحدانًا.

قال تعالى: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ٥]، وقال تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩].

وقد جاء التعبير عن هذه الصفة الحَدِّية من صفات الطائفة المنصورة بلفظ القتال، ولم يأت بلفظ الجهاد، قاطعًا الطريق على من أُشربوا في قلوبهم حبَّ التأويل -والذي حقيقته التحريف-؛ ليمنعهم من تحريف هذه الصفة عن حقيقتها إرضاءً لشهواتهم وخضوعًا لشبهاتهم، وليضعَهم في مواجهَةِ أنفسهم مواجهةً يتبعُها إما القيام بأمر الله وتحقيق شرط صحة النسبة للطائفة المنصورة وأهلها، وإما التخاذل والتقهقر وبطلان النسبة وانكشاف الادعاء، بل وقع في بعض روايات الحديث أن ذكر النبي ﷺ للقتال إنما هو لزعم بعضهم ألاَّ جهاد وأن الحرب قد وضعت أوزارها؛ فعن سلمة بن نفيل الكندي -رضي الله عنه- قال: (كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ، وَوَضَعُوا السِّلَاحَ، وَقَالُوا: لَا جِهَادَ؛ قَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ: "كَذَبُوا؛ الْآنَ الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَرْزُقُهُمْ

مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ")[١].

إنه قدرُ القتال، وسبيلُ المواجهة مع الباطل، حقيقةٌ كان النبي ﷺ يصدع بها في وجه أعدائه والدعوة في أصعب ظروفها، وأحلك مراحلها، من قلةٍ في العدد وضعفٍ في العُدة.

قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه-: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله ﷺ؟ قال: (حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر، فذكروا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّه أحلامنا، وشتمَ آباءنا، وعابَ ديننا، وفرَّقَ جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيمٍ. قال: فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي، حتى استلم الرُّكن، ثمَّ مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلمَّا أن مرَّ بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفتُ ذلك في وجهه، ثمَّ مضى، فلمَّا أن مرَّ بهم الثَّانية، غمزوه بمثلها، فعرفتُ ذلك في وجهه، ثمَّ مضى، ثمَّ مرَّ بهم الثَّالثة فغمزوه بمثلها، فقال: "تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ: لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ"، فأخذتِ القوم كلمته، حتَّى ما منهم رجلٌ إلا كأنَّما على رأسه طائرٌ واقعٌ، حتَّى إنَّ أشدَّهم فيه وصاةً قبلَ ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتَّى إنَّه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا فوَ الله ما كنت جهولًا)[٢]. قال البيهقي -رحمه الله-: (وفي هذا الحديث: أنَّه ﷺ أوعدهم بالذَّبح وهو القتل في مثل تلك الحال، ثمَّ صدق الله تعالى قوله بعد ذلك بزمانٍ فقطع دابرهم، وكفى المسلمين شرَّهم)[٣].

---

[١] رواه النسائي، وأحمد بنحوه، (إسناده صحيح).

[٢] رواه أحمد، والبزار وابن حبان والبيهقي في الدلائل (إسناده حسن).

[٣] دلائل النبوة، (ج٢/ص٢٧٦).

تلكم الحقيقة كان النبي ﷺ يغرس بذورها في نفوس أصحابه، ولا سيما في تلك المرحلة التي لم يؤذن لهم فيها بالقتال، وأمروا فيها بالعفو والصفح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأثمر ذلك الغراس وأينعت ثمرته في نفوس الصحابة -رضوانُ الله عليهم-، فأدركوا حقيقةَ الصراعِ بينهم وبين الكفر، وأن هذه المرحلة مرحلةٌ مؤقتة ما تلبثُ أن تزول، وأن القتال بينهم وبين معسكر الباطل وحزبه أمرٌ كائنٌ لا محالة، ذلكم هو قدر هذه الدعوة منذ يومها الأول، وأن السيف هو الفيصلُ بينهم وبين أعدائهم، وهو من سيزيحُ هذه الرؤوسَ عن طريق الحق وأهله.

لما أخذ النبي ﷺ البيعة من الأوس والخزرج يوم العقبة؛ قالوا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ فقال ﷺ: "تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ، لَا تَأْخُذْكُمْ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِيَ إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ"، قال جابر -رضي الله عنه-: (فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السَّبعين، فقال: رويدًا يا أهل يثرب، إنَّا لم نضرب إليه أكباد المطيِّ إلَّا ونحن نعلم أنَّه رسول الله، وإنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافَّةً، وقتلُ خياركم، وأن تعضَّكم السُّيوفُ، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك؛ فخذوه وأجركم على الله، وإمَّا أنتم قومٌ تخافون من أنفسكم خيفةً؛ فذروه، فهو أعذرُ لكم عند الله، فقالوا: يا أسعدُ؛ أمط عنَّا يدك، فوَ الله لا نذرُ هذه البيعة ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلًا رجلًا، فأخذ علينا لعطينا بذلك الجنة)[1].

[1] ذكره الزرقاوي مختصرًا، رواه أحمد وابن حبان والبيهقي في الدلائل والحاكم، وقال: (صحيح الإسناد، ولم يخرجاه). وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (هذا إسناد جيّد على شرط مسلم)، وحسّنه ابن حجر في الفتح.

لله درك يا ابن زرارة على هذه المقالة! يا لها من كلمات تنبئُ عن معرفة بحقيقة الصراع بين الحق والباطل، ومنذ اللحظةِ الأولى قبل البيعة، كلماتٌ خرجت من فِيّ مَن سلمت فطرتُه، ولم تلوثها تلكم المتاهات النظرية، والسفسطات الكلامية، والفلسفاتِ العقيمة، كلماتٌ نسوقها إلى أولئك الذين ما عقلوا طبيعة هذا الدين، ولم يعوا بعدُ حقيقته، وليتهم اكتفوا بتخاذلهم وقعودهم عن الجهاد، لهان المصابُ إذن، ولما انشغلنا بتوجيه اللوم لهم؛ ولكنهم أبوا إلا أن يضفوا على هذا القعود والتخاذل الصبغة الشرعية، فخرجوا على الأمة بمناهج دخيلة على ما كان عليه سلف الأمة وعلماؤها، كانت بمنزلة معول الهدم في بنيان هذا الدين، شعروا أو لم يشعروا، حقنوا أجساد أبناء هذه الأمة بجرعات من التخدير والتثبيط، وعقدوا على ناصية رؤوسهم ثلاثًا، وكلما همّ أبناء الأمة لينفضوا غبار الذل الذي تغشاهم، ويهبوا نصرة لدينهم، ودفاعًا عن حرماتهم: نادوا عليهم أن ارقدوا عليكم ليلٌ طويل، إن الدواء لما ترونه في جسد أمتكم من جراح وما تحسون فيه من آلام: إنما هو بأن تُغمدوا سيوفكم، وتكسروا رماحكم وتلزموا دوركم!

هكذا يُخدّرُ أبناءُ هذه الأمة! وهكذا توأد فيهم روح الجهاد، وبماذا؟! إنه بالسلاح الذي يستنهض به أبنائها ليحاربوا أعدائهم، يُخَدَّرون بحقن شعار التصفية، ويثبطون تحت دعاوى التربية، كلماتُ حق أريد بها باطل، عن أي تصفية يتكلمون؟! وهل التصفية لما التصق بهذا الدين مما ليس منه إلا بالجهاد؟!

قلِّب بصرك أينما شئتَ في بلاد المسلمين؛ هل ترى تربَّعَ على عروشها من يحكمُ بشريعة رب العالمين؟! أو أخذ على نفسه نُصرة هذا الدين والذود عن حياضه والدفاع عن حرماته؟!

لا أظن إلا وسيرتد إليك بصرك كليلًا حسيرًا، ولن ترى إلا حربًا ضروسًا لتقويض بنيان هذا الدين، وسعيًا حثيثًا لاستئصال شأفة المجاهدين الصادقين، وموالاةً للكافرين، وبراءةً من الموحدين، ووالله ما رأينا ولا سمعنا أحدًا من هؤلاء الأدعياء قام مقام صدقٍ فكشف لأبناء هذه الأمة عوار هؤلاء الطواغيت، ولا حرض على قتالهم ووجوب جهادهم؛ بل ما رأينا منهم إلا إضفاء الشرعية على حكمهم، وتحريمَ الخروجِ عليهم، ونبزَ كل من يحاول جهادهم بأبشع الألقاب وأشنع الصفات!

ها قد هلك متقلد الصليب، طاغية آل سلول خائن الأمة والدين، وحامل راية لواء الحرب على المجاهدين والذي مكن للصليبيين وجودهم على جزيرة محمد ﷺ؛ لينهبوا خيراتها، ويعيثوا فيها فسادًا؛ فما سمعنا أحدًا من هؤلاء الأدعياء كشف جرائم عدو الله، ولا ذكر مخازيه في حق الأمة وأبنائها! ووالله إن ما قام به هذا الطاغية في حرب الإسلام والمسلمين لا يقل عن فعل أي طاغية من طواغيت العرب، ولكن لكل أرض حكمها، ولكل بلاد طبيعتها، بل ما رأينا منهم إلا المسارعة في مبايعة أخيه الذي تلطخت يداه بدماء إخواننا المجاهدين، ومن آخرهم الأخ المجاهد صالح العوفي وإخوانه تقبلهم الله في الشهداء، أمَا بلغكم قول سفيان الثَّوريُّ –رحمه الله–: (من دعا لظالمٍ بالبقاء؛ فقد أحبَّ أن يُعصى اللهُ في الأرض)[1]؟! فكيف بمن بايع طاغيةً مرتدًّا، وبارك صنيعه؟!

يا حسرة على أمة تبارك لطواغيتها قتل خيار أبنائها! لكُم الله أيها المجاهدون!

إن المجاهدين لو كانوا في أمة تعرف لأبنائها حقهم، وتقدرهم حق قدرهم: لَما تركوهم يمشون على الأرض، ولغسّلوا عن أقدامهم، فيا أسود جزيرة محمد ﷺ؛ اصبروا على ما أقامكم الله فيه، واعلموا أن الله ما ابتلاكم إلا وهو يريد بكم خيرًا، وأُقسم

[1] رواه أبو نعيم في الحلية (ج٧/ص٤٦) من قول سفيان و(ج٨/ص٢٤٠) من قول يوسف بن أسباط، ورواه البيهقي في الشعب (ج١٢/ص٤٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (ص١٤٤) من قول الحسن البصري –رحمهم الله–.

بالذي لا إله غيره: أن دماء إخواننا لن تذهب سدى -بإذن الله-، ألا فارتقبوا يا طواغيت آل سلول، وإن غدًا لناظره لقريب.

أم أن التصفية التي يقصدون والتنقية التي ينشدون: طباعة كتاب من ها هنا، وإخراج جزء من هناك يتكسبون الرزق من خلالها؛ حتى أضحوا بهذه المهنة يُعرفون، وبها يُذكرون، ثم لتنحر الأمة بعد ذلك، ولتغتصب أراضيها، وليعتدي على مقدساتها؟! فبئست التصفيةُ والله!

إن الأمة اليوم لا تحتاجُ إلى مزيدٍ من المصنفات والمؤلفات، فمكتباتُها تزخر بعشرات الآلاف من المجلدات، وإنما هي في حاجة إلى مناراتٍ تضيء لها الطريق وتنير لها السبيل، بحاجة إلى قُدُوات يروون بدمائهم ترابَ أرضها؛ فتدب روح الحياة في صفوف أبنائها من جديد.

وعن أي تربية يتحدثون؟! وهل التربيةُ على التوحيد الصافي والكفر بالطاغوت والولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين، وبذل النفوس والمهج رخيصةً فداءً لهذا الدين: إلا في ساحات الجهاد وميادين القتال؟! وهل كان جل تربية نبينا محمد ﷺ لأصحابه إلا في ساحات الجهاد؟! روى البخاري عن البراء -رضي الله عنه- قال: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالحَدِيدِ، فَقالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أُقَاتِلُ وَأُسْلِمُ؟ قالَ: "أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ"، فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ، فَقُتِلَ، فقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا"، فتأمل كيف أمره النبي ﷺ بالإسلام ومن ثم أمره بالقتال تربية له على التضحية والفداء لهذا الدين، ولم يأمره بالرجوع إلى المدينة حتى يتربى كما يزعم هؤلاء، وهذا في فرض الكفاية وجهاد الطلب، فكيف بالعدو الصائل وجهاد الدفع؟!

إن العلم الشريف عند أهل الطائفة المنصورة ليس بحفظ المتون، وجمع الفنون، وكثرة التصنيف، ومجالس الوعظ والتدريس والإفتاء، مع ترك القيام لله بالأمر الذي

يحبه ويرضاه من صدع بحق، وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكر، وغضبٍ صادق إذا انتُهكتْ محارم الله، وإعلاءٍ لكلمةِ الله دعوة وجهادًا، فمن كان حظه من العلم ما ذكر، مع تضييعه لواجبات الدين الكبار إيثارًا للسلامة أو إخلادًا للراحة والدعة، أو حبًّا للدنيا وتثاقلًا للأرض، أو ركونًا للذين ظلموا؛ فقد خان الرسالةَ، وضيع الأمانة، ومن ثمّ خرج عن حد العلم الشريف ورسمه، وفارق تلك القافلة المباركة، قافلة العلم الشريف التي يقف على رأسها الأنبياءُ والمرسلون، فإما أن ينتظمه رسمهم أو يشمله حدهم أو أن يجمعه وإياهم وصفٌ واحد، ولمثل هذا يقال: لست والله عالـمًا أو حكيمًا، إنما أنت تاجرٌ في العلوم؛ فبغير القتال تبقى الفتنة، وهيهات أن يكون الدين كله لله، ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون. قال أبو بكر الجصاص -رحمه الله-: (وليس بعد الإيمان بالله ورسوله فرضٌ آكد ولا أولى بالإيجاب من الجهاد؛ وذلك أنَّه بالجهاد يمكن إظهار الإسلام، وأداء الفرائض، وفي ترك الجهاد غلبةُ العدوَّ، ودُرُوسُ الدِّينِ وذهابُ الإسلام)[١].

فإذا قعد أهلُ الحقِّ عن نصرة الحق، ودفعِ الباطل، وإزالتِهِ بسيوفهم، جهلًا منهم بمعاني الحق ومقتضياته ولوازمه، أو غفلةً منهم عن حقيقةِ الصراع، وعن طبيعة الباطل وصفته، أو استسلامًا لقراءَةٍ فاسدةٍ في نواميس الكون وسننه الإلهية، أو خداعًا بأوهام وأمانيَّ باطلة، أو خضوعًا لمتاهاتٍ نظرية، وفلسفاتٍ جدلية، وأطروحاتٍ إنشائية، تدورُ في حَلَقة مفرغة تبدأ من حيث انتهت، وتنتهي من حيث بدأت، أو خوَرًا وضعفًا، وعجزًا عن القيامِ بالقتال وتحمُّلِ أعبائِه؛ فإن سننَ الله لا تُحابي أحدًا أيًّا كان، ومن ثم فليس غير الذل والهوان وفتنة المسلمين عن دينهم، مع تبدُّل أحكام الدين وطمس معالمه، وتغيير حقائقه والتلاعب بها، وغير ذلك من العقوبات القدرية التي تنزل بمن خذل الحقّ وأسلمه، وهذا فضلًا عن وعيدِ الآخرة. قال تعالى: {إلاَّ

[١] أحكام القرآن، (ج٣/ص١٤٩).

تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٩]، قال ابن العربي -رحمه الله-: (هذا تهديدٌ شديدٌ، و وعيدٌ مؤكَّدٌ، في تركِ النَّفير: [...]، فوجب بمقتضاها النَّفيرُ للجهاد، والخروجُ إلى الكُفَّار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا [...]، فالعذاب الأليم هو الَّذي في الدُّنيا باستيلاء العدُوِّ على من لم يستول عليه، وبالنَّارِ في الآخرة، وزيادةً على ذلك استبدال غيركم، كما قال الله سبحانه: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨])[١]، وقال ﷺ: "مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ"[٢]، والعذاب: كما هو ظاهرٌ من النصوص، هو عذابُ الدُّنيا بالذل والهوان والصغار الذي يُضرب على البلاد والعباد، وهو بعدُ عذابُ الآخرة الذي لا يقارن، به ولا يدانيه عذاب الدُّنيا وبئس المصير.

فإذا لم يكن لأهل الكفر مع أهل الإيمان غيرُ خيارين اثنينِ لا ثالث لهما: إما الفتنةُ عن الدين، وإما السيف؛ فإنه كذلك ليس لشرع الله مع المؤمنين غير خيارين اثنين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لأمره بقتال الكفر ودفعه بحد السيف، وإما التعرض لعذاب الله وغضبه وسخطه في الدُّنيا والآخرة، مع استبدال من يكون أولى منهم وأجدر وأحقُّ بفضل الله بهم. فتعيَّنَ شرعًا وعقلًا وواقعًا كونُ القتالِ قدر الطائفةِ المنصورة.

فصل: مراتب الأعمال عند الطائفة المنصورة

إن أصحاب الطائفة المنصورة من أكثر الناس مراعاةً لفقه مراتب الأعمال؛ فهم إذا ثبت في حقهم من الفروض العينيات، فإنهم لا يقدمون بين يديه شيئًا من الفروض الكفايات فضلًا عن غيره من المستحبات والمباحات، وبيان ذلك فيما يتعلق

[١] أحكام القرآن، (ج٢/ص٥١١).

[٢] رواه الطبراني في المعجم الأوسط (إسناده حسن).

بشأن الجهاد والقتال: أن الجهاد في أصله فرضٌ كفائي، فإذا قام به من تتحقّقُ بهم الكفاية سقط الوجوب عن الآخرين، والفضل فيه لمن قام به دون غيره، ولذا كان الاشتغال به حال كونه فرض كفاية مشروطًا بأن لا يضيّع العبد فرضَ عين أو فرض كفاية أهمَّ منه في حقه إن وجد.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- في شرحه لحديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- (قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ"[١]): (وكأنَّ المراد بالمؤمن من قام بما تعيَّن عليه القيام به، ثمَّ حصَّل هذه الفضيلة، وليس المراد من اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات العينيَّة، وحينئذٍ فيظهر فضل المجاهد لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى، ولما فيه من النَّفع المتعدِّي)[٢].

ويتعين الجهادُ عند أهل الطائفة المنصورة في مواضع ثلاث؛

أولًا: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان،

ثانيًا: إذا استنفر الإمام قومًا لزمهم النفير،

ثالثًا: إذا نزل العدو ببلدٍ من بلدان المسلمين تعين على أهل هذه البلدة الجهاد، ويتعين على غيرهم من المسلمين عند عدم قيام أهل هذه البلدة بواجبهم في دفع هذا العدو، أو عدم كفاية من قام بذلك الأقرب فالأقرب.

والحالةُ الثالثة من حالات تعين الجهاد هي أشد الحالات الثلاث وألزمُها، كما أنها متضمنةٌ للحالتين الأوليين وزيادة؛ وتُعرف بالنفير العام؛ قال أبو بكرٍ الجصاص -رحمه الله-: (معلومٌ في اعتقاد جميع المسلمين: أنَّه إذا خاف أهل الثُّغور من العدوِّ،

---

[١] رواه البخاري.

[٢] فتح الباري، (ج٦/ص٦).

ولم تكن فيهم مقاومــةٌ لهم فخـافوا على بلادهم وأنفســهم وذراريِّهم، أنَّ الفـرض على كافَّة الأُمَّة أن ينفر إليهم من يكُفُّ عاديتهم عن المسلمين، وهذا لا خلاف فيه بين الأُمَّةِ)[١]، وقال شيخ الإسلام –رحمه الله–: (وإذا دخل العدوُّ بلاد الإسلام: فلا ريب أنَّه يجب دفعه على الأقربِ فالأقربِ؛ إذ بلادُ الإسلام كلُّها بمنزلة البلدة الواحدة، وأنَّه يجبُ النَّفير إليهِ بلا إذن والدٍ ولا غريمٍ)[٢].

ونصوصُ العلماء في تقرير الفرضية العينية للجهاد في حالة نزول العدو ببلد من بلدان المسلمين: كثيرةٌ جدًّا يصدق بعضها بعضًا، لا يختلف علماء الإسلام المحققون في هذا[٣]؛ فإذا تعيّن الجهاد فهو مقدمٌ عند أهل الطائفة المنصورة على غيره من النوافل، كما أنه مقدمٌ على غيره من الواجبات الكفائية أيًّا كانت بلا أدنى نزاع؛ بل ومقدم على غيره من الواجبات العينية عند عدم إمكان الجمع بينه وبينها، وهذا مقررٌ من الوجوه الآتية:

الوجه الأول: أن الجهاد إذا تعيّن فتاركه فاسقٌ مرتكبٌ كبيرة؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنيا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٨-٣٩]، فقوله تعالى: {إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}: دالٌّ على توجه الوعيد الشديد في حق القادر على الجهاد التارك له عند تعينه، قال القرطبي –رحمه الله–: (وهذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ مؤكَّد في ترك النفِير)[٤]، قال ابن العربي: (ومن محقَّقات مسائل الأصول: أنَّ الأمر إذا ورد فليس في ورودهِ

---

[١] أحكام القرآن، (ج٣/ص١٤٦-١٤٧).

[٢] الفتاوى الكبرى، (ج٥/ص٥٣٩).

[٣] انظر: موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، (ج٦/ص٣١-٣٤)، دار الفضيلة.

[٤] الجامع لأحكام القرآن، (ج١٠/ص٢٠٨). في الأصل هذا كلام ابن العربي.

أكثرَ من اقتضاء الفعل، فأمَّا العقاب عند التَّرك: فلا يُؤخذُ من نفس الأمر، ولا يقتضيه الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه؛ كقوله: إن لم تفعل كذا عذَّبتك بكذا، كما ورد في هذه الآية، فوجب بمقتضاها النَّفيرُ إلى الجهاد، والخروج إلى الكفَّار لمقاتلتهم، على أن تكون كلمةُ الله هي العليا)[١]، وقد وردت هذه الآيات في حق من استنفرهم النبي ﷺ لقتال الروم في غزوة تبوك بعيدًا عن بلاد المسلمين وبيضتهم؛ فكيف بمن قعد عن الجهاد عند نزول العدو بلاد المسلمين ذاتها، وحلولهم بالعُقر من الديار، واستباحتهم للبيضة، والاستيلاء عليها؟

ومن علامات الكبائر التي نص عليها الأئمة: أن يرد فيها وعيد في الآخرة؛ قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (الكبائرُ: كلُّ ذنبٍ ختَمه اللهُ بنارٍ أو غضَبٍ، أو لعنةٍ، أو عذابٍ)[٢]، قال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله تعالى-: (الكبيرة التِّسعون والحادية والثَّانية والتِّسعون بعد الثَّلاثمائة: ترك الجهاد عند تعيُّنه بأن دخل الحربيُّون دار الإسلام أو أخذوا مسلمًا وأمكن تخليصه منهم، [وأيضًا] ترك النَّاس الجهاد من أصله، [وأيضًا] ترك أهل الإقليم تحصين ثغورهم بحيثُ يخافُ عليها من استيلاء الكُفَّار بسبب ترك ذلك التَّحصين)[٣]، ثم قال: (عدُّ هذه الثلاثة ظاهرٌ -أي من الكبائر-؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منها يحصل به من الفساد العائد على الإسلام وأهله ما لا يتدارك خرقه، وعليها يحمل ما في هذه الآية والأحاديث من الوعيد الشَّديد، فتأمَّل ذلك فإنِّي لم أر أحدًا تعرَّض لعدِّ ذلك مع ظهوره)[٤]. إذا تبيّن ذلك: فإذا تعين الجهاد، فتاركه القادر عليه مرتكب كبيرة، فاسق أشد فسقًا من الزاني والسارق

[١] أحكام القرآن، (ج٢/ص٥١١).

[٢] رواه الطبري في تفسيره، (ج٦/ص٦٥٢).

[٣] الزواجر عن اقتراف الكبائر، (ج٢/ص٢٦٩).

[٤] المرجع السابق، (ص٢٧١).

والشارب؛ حيث خذل الدين، وأسلم البلاد والعباد لأعداء الله ورسوله ﷺ، مع ما يترتب على ذلك من الفساد المتعدي.

وبناءً على ذلك: فغير مقبول ممن تعلق به هذا الحكم أن ينشغل بغير الجهاد من الأعمال؛ إذ انشغاله بهذه الأعمال -أيًّا كانت- لا يرفع عنه وصف الفسق المتعلق به من جراء تخلفه عن الجهاد المتعين.

الوجه الثاني: أن الفرائض مقدمة على النوافل؛ فالفرائض التي فرضها الله على عباده عند أهل الطائفة المنصورة: هي الأصل والأساس في تعبد المكلف لربه ومولاه، وهي من ثم أحب إلى الله وأقوم في نيل رضاه، وتارك الفرائض اشتغالًا عنها بالنوافل عاص لله لم يخرج بعد من دائرة العصيان أيًّا كانت تلك النوافل التي اشتغل بها عن الفرائض، وأيًّا كان مبلغ اجتهاده فيها، وفي الحديثِ القدسي الصحيح؛ يقول الله تعالى: {مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ...}[١] الحديث، فنص الحديث على أن الفرائض -ومنها الجهاد-: أحب ما تقرب به العبد إلى الله سبحانه وتعالى، وقد اتفق أهل العلم بلا خلاف على أن الفرائض مقدمة على غيرها من النوافل، وأن الانشغال بالنوافل مع تضييع الفرائض عملٌ معكوس وجهد ضائع، ولا شك أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخل بها، كما قال بعض الأكابر: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور، بل مجرد التسوية بين جنس الفرائض وجنس النوافل ممنوعة بيقين؛ فلا يجوز أن يسوى بين الواجب والمندوب لا في القول ولا في الفعل ولا في الاعتقاد، كما لا يُسَوَّى بين الحرام والمكروه، بل ولا بين المباح وبين المندوب والمكروه؛ قال الشاطبي -رحمه الله-: (المندوب من حقيقة استقراره مندوبًا

---

[١] رواه البخاري.

ألا يُسوَّى بينه وبين الواجب، لا في القول ولا في الفعل، كما لا يُسوَّى بينهما في الاعتقاد)[١]، والخلاصة: أن أعلى رتب مصالح الندب دون أدنى رتب مصالح الواجب[٢].

وقد بعث الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك إلى من كان يوصف بعابد الحرمين الإمام الفضيل بن عياض بأبيات يقول فيها:

يا عابدَ الحَرَمينِ لوْ أبصرْتَنا *** لَعلمْتَ أنّك في العبادةِ تلْعبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ خدَّهُ بدموعِهِ *** فَنُحُورُنا بِدِمَائِنا تتَخَضَّبُ
أو كان يُتْعِبُ خيلَهُ في باطلٍ *** فخيولُنا يومَ الصَّبِيْحَةِ تَتْعبُ
رِيْحُ العَبِيْرِ لكمْ ونحنُ عبيرُنا *** رَهْجُ السَّنابكِ والغبارُ الأطْيبُ
ولقد أتانا مِنْ مَقالِ نبيّنا *** قوْلٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكْذَبُ
لا يَسْتَوِي وغُبارُ خَيْلِ اللهِ في *** أَنْفِ امرئٍ ودُخَانُ نارٍ تلْهَبُ
هذا كتابُ اللهِ ينطِقُ بَيْنَنا *** ليس الشَّهيدُ بميّتٍ لا يُكْذَبُ[٣]

فتأمل كيف وصف انشغال الإمام الفضيل بن عياض بالعبادة ومجاورة الحرم باللعب والباطل مقارنةً بتركه للقتال في سبيل الله؛ هذا مع كون الجهاد المتحدث عنه فرض كفاية لا فرض عين! فكيف لو رأى الإمام ابن المبارك -رحمه الله- حال القاعدين عن الجهاد المتعين انشغالًا بنوافل وتطوعات؟ بماذا يا ترى سيصف أعمالهم التي قعدوا بها عن هذا الجهاد؟

الوجه الثالث: أن الواجبات العينية تقدَّمُ على الواجبات الكفائية، وهو الوجه الثالث الذي يتقرر به أن الجهاد إذا تعين فإنه يقدم على غيره من الأعمال، وتقديمُ

---

[١] الموافقات، (ج٤/ص٩٧).

[٢] انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، (ج١/ص٥٥) دار الكتب العلمية، ونفائس الأصول في شرح المحصول، القرافي، (ج١/ص٣٥٢).

[٣] انظر: سِيَر أعلام النبلاء، الذهبي (ج٨/ ص٤١٢)، وتاريخ دمشق، ابن عساكر (ج٣٢/ ص٤٤٩).

الواجبات العينية على الواجبات الكفائية أصلٌ مقررٌ عند أهلِ الطائفة المنصورة، وهو من العدل الذي أُمروا به في أمرهم كله، ومن ثم يضعون كل شيءٍ موضعه بلا شطط؛ فينالون رضوان الله بالمسارعة إلى محابِّه واجتناب مساخطه. قال الغزالي -رحمه الله- وهو يتكلم عن شروط الاشتغال بالمناظرة الفقهية، وهي من فروض الكفاية؛ قال: (الأوَّلُ: ألاَّ يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرَّغ من فروض الأعيان: ومن عليه فرضُ عينٍ فاشتغل بفرض الكفاية، وزعم أنَّ مقصوده الحقُّ؛ فهو كذَّابٌ، ومثاله مثال من يترك الصلاة في نفسه ويتَّجرُ في تحصيل الثياب ونسجها، ويقول: غرضي به ستر عورة من يصلِّي عريانًا ولا يجدُ ثوبًا)[1]، إلى أن قال -رحمه الله-: (فلا يكفي في كون الشخص مطيعًا كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب)[2]، فنصَّ -رحمه الله- على أن من اشتغل بفرص كفاية، مع عدم تفرغه من فرض العين: أنه كذاب، وإن زعم أن قصده الحق.

الوجه الرابع: الذي يتقرر به تقديم الجهاد عند تعينه على غيره: أن الواجب المضيَّق يقدم على الواجب الموسَّع، والفوري يقدم على المتراخي، وما يخشى فواته على ما لا يخشى فواته، وقد ذكر القرافي -رحمه الله- وهو يتحدث عن مسألة تعارض الواجبات وما يقدم منها وما يؤخر أن هذا: (مبنيٌّ على معرفة قاعدةٍ في التَّرجيحات -وضابط ما قدَّمه الله تعالى- على غيره من المطلوبات، وهي أنَّه إذا تعارضت الحقوق قُدِّم منها المضيَّق على الموسَّع؛ لأنَّ التَّضييق يُشعر بكثرة اهتمام صاحب الشَّرع بما جعله مضيَّقًا، وأنَّ ما جوَّز له تأخيره وجعله موسَّعًا عليه دون ذلك، ويقدَّم الفوريُّ على المتراخي؛ لأنَّ الأمر بالتَّعجيل يقتضي الأرجحيَّة على ما جُعل له تأخيره، ويقدَّم فرضُ الأعيان على الكفاية؛ لأن طلب الفعل من جميع المكلَّفين يقتضي أرجحيَّة ما طُلِب من البعض فقط، ولأنَّ فرض الكفاية يعتمد عدمَ

[1] إحياء علوم الدين، (ج١/ص١٥٩).

[2] المرجع السابق، (ص١٦٠).

تكرُّر المصلحة بتكرُّر الفعل، [...] والفعلُ الذي تتكرَّر مصلحتُه في جميع صوره أقوى في استلزام المصلحة من الَّذي لا توجد المصلحة معه إلَّا في بعض صوره، ولذلك يقدَّم ما يخشى فواته على ما لا يخشى فواته، وإن كان أعلى رتبةً منه)[١].

وبهذه الوجوه الأربعة المتقدمة؛ يتقرر أن الجهاد إذا تعين فهو مقدم عند أهل الطائفة المنصورة على غيره من النوافل، كما أنه مقدم على غيره من الواجبات الكفائية أيًّا كانت بلا أدنى نزاع، بل ومقدمٌ على غيره من الواجبات العينية عند عدم إمكان الجمع بينه وبينها؛ كالصلاة والصيام والحج وغيرِها، وقد وصف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فقهَ مراتب الأعمال بأنها حقيقة الدين، وحقيقة العمل بما جاءَت به الرسل، وبأنه خاصةُ العلماءِ بهذا الدين فقال -رحمه الله-: (فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد؛ بحيث تعرف ما [ينبغي] من مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتى تقدم أهمها عند الازدحام، فإنَّ هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرُسُل، فإنَّ التمييز بين جنس المعروف، وجنس المنكر، أو جنس الدليل، وغير الدليل: يتيسر كثيرًا، فأمَّا مراتب المعروف والمنكر، ومراتب الدليل، بحيث يقَدَّم عند التزاحم أعرف المعروفين، فتدعو إليه، وينكر أنكر المنكرين، ويرجح أقوى الدليلين: فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين)[٢].

يتبين مما سبق أن المجاهدين، أهل الطائفة المنصورة، فيما ذهبوا إليه: لم يأتوا ببدع من القول أو مستحدث من الفعل، كيف؟ ودربهم دربٌ مسلوك، وسبيلٌ مطروق، أسلافهم فيه خير من وطئ الحصى من الأنبياء والمرسلين والتابعين لهم بإحسان، وهم بهم يقتدون، ولآثارهم يقتفون، أقدامُهم في الثرى، وهاماتهم في الثريا، ونفوسهم ترى

[١] أنوار البروق في أنواء الفروق، (ج٢/ص٢٠٣).

[٢] اقتضاء الصراط المستقيم، (ج٢/ص١٢٧).

إراقة دماء الحياة دون إراقة ماء المُحيّا، ساروا وحاديهم قولُ الزبير -رضي الله عنه-: (نحنُ أمةٌ لا نموتُ إلا قتلًا، فمالي أرى الفُرُش قد كثر عليها الأموات؟)[١].

يردد السالك لدربهم قولَ الأول:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا *** عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ *** يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[٢]

أو قولَ الآخر:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً *** وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً *** بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي *** أَرْشَدَكَ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا[٣]

أو قولَ الجمع المبارك:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا *** عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا[٤]

فأئمتهم قد أوضحوا لهم الحجة، ورسموا لهم المحجة، وعبّدوا لهم دربهم، وحذَّرُوهم مِن بُنيّاته، وخطّوا لهم خطة الهدى والرشاد، تقدَّمُوهُم في المسير، وسَبقُوهُم في الوصول، وقد ضَرَبُوا لهم موعِدَ اللقاء مع من وفى دون من نكص؛ {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} [التوبة: ١٠٠]، فهم يخافون أشدَّ الخوف من أن يتخلّفوا عن هذا الموعد ويفوتَهم الوفاء، فيُحرموا اللقاء، فهاجسهم أبدًا: غدًا ألقى الأحبة، محمّدًا وصحبه.

---

[١] لم أجده عند أحد.
[٢] بيتي خبيب الأنصاري -رضي الله عنه- عندما قتلته قريش صبرًا، رواه البخاري.
[٣] أبيات عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-، رواها ابن إسحاق. سيرة ابن هشام (ج٢/ص٣٧٤).
[٤] إجابة الصحابة -رضوان الله عليهم- للنبي ﷺ عندما قال: "اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الآخِرَهْ ***. فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ"، رواه البخاري.

فأرواحهم تهيم هناك لا هنا.

جِسْمِي مَعِي غَيرُ أَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمُ *** فَالْجِسْمُ فِي غُرْبَةٍ وَالرُّوحُ فِي وَطَنِ
فَلْيَعْجَبِ النَّاسُ مِنِّي أَنَّ لِي بَدَنًا *** لَا رُوحَ فِيهِ وَلِي رُوحٌ بِلَا بَدَنِ[١]

وأنّى لمن هذا شأنهم أن يقعدهم ابتلاءٌ عن النفير، أو تثني عزائمهم محنةٌ عن الجهاد؟ بل يبادرون ويسابقون، ويرددون وهم يُنحرون تقديمًا لبرهان المحبة الصادق:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ *** وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِيْ بَيْنِيْ وَبَيْنَكَ عَامِرٌ *** وَبَيْنِيْ وَبَيْنَ الْعَالَمِيْنَ خَرَابُ
إِذَا [صَحَّ] مِنْكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ *** وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ[٢]

إنَّ المجاهدين، أهل الطائفة المنصورة: ليسوا بقومٍ ضاقت عليهم أنفسهم فتبرموا بها وأرادوا لها خلاصًا، أو قومٍ سُدَّت عليهم سبلُ العيش ومنافذُ الرزق، أو أسرى عاهاتٍ نفسية تعشقُ الموت لذاته، وتسعى له بكل سبيل، وقد رأت الدُّنيا سوداء مظلمة، كلا وربي! وإنما هم قومٌ عرفوا واجبهم، وحقيقةَ المراد منهم؛ فشمروا عن ساق الاجتهاد، وسلكوا سبيلَ الجهاد، ولم يتعللوا بواهي العلل، وساقط الحُجج، ليعذروا في ترك هذا الواجب، بل هانت عليهم أنفُسهم في ذاتِ الله، وعاينُوا العاقبة وأيقنوا بها، فآثروا الباقية على الفانية، والآجلة على العاجلة، فكان منهم المسارعة لبذل الغالي والرخيص، والنفسِ والنفيس، محبة لمولاهم وتقرّبًا لخالقهم، وقد رأوا أن الدُّنيا بما فيها أحقرُ مِن أن تُقعِدَهم عن نيلِ محبة الله ورضاه، فمضوا وحاديهم: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، فجادوا بنفوسهم يوم أن ضنَّ بها الكثيرون، وبذلوا دماءهم رخيصة يوم أن بخل بها المدعون، وهذا والله إنما هو محض فضل من الله عليهم، {ذَلِكَ فَضْلُ

[١] بيتين لأبي الفتوح نصر بن علي البغدادي. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، (ج١٧/ص-١٧٧). ونسب البيتين لأكثر من واحد في كتب الشعر والأدب.

[٢] أبيات لقصيدة أبي فراس الحمداني وهو في الأسر، انظر: ديوان أبي فارس الحمداني (ص٤٨).

اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤]، وفضل الله هذا لا يوفق له كلُّ أحد؛ فأهلُه هم المصطفون الأخيار، المفضلون على غيرهم من العالمين، والله أعلم حيث يضع فضله ومنته، فالمجاهدون هم خيرة الله من خلقه، لبّوا نداء خالقهم لإمضاء العقد وتسليم المبيع: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]، وهم المتأسون المقتدون بسيّد الخلق ﷺ القائل: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَوْلا أنْ أَشُقَّ عَلَى المسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سَبيلِ اللهِ أبدًا، وَلكِنْ لا أجِدُ سَعَةً فأحْمِلُهُمْ وَلا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَوَدِدْتُ أنْ أغْزُوَ في سَبيلِ اللهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أغْزُوَ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أغْزُوَ فَأُقْتَلَ"[1].

ورحم الله القائل: (إنما هو بذل الرُّوح؛ وإلّا فلا تشتغل في التُرَّهات)[2].

إن أول قدم في الطريق بذلُ الرُّوح، هذه الجادة؛ فأين السالك؟

ورحم الله الشيخَ أبا أنس الشَّامي يوم أن قال لي يومًا مثبِّتًا ومسليًّا: (يا فلان! سنبقى نحفرُ بالصخر حتى نصنع مجدًا لأمتنا).

قال لي صاحبي والبينُ قد حل *** ودمعي مرافقٌ لشهيقي
ما تُرى تصنع في الطَّريق بعدي؟ *** قلتُ أبكي عليك طول الطريق[3]

---

[1] رواه مسلم، وروى البخاري بعضه.

[2] روى نحوه البيهقي في الزهد الكبير (ص٢٨٣) وأبي نعيم في الحلية (ج١٠/ص٢٩٧)، من قول رويم بن أحمد.

[3] بيتين للوزير المهلبي بتصرف من الزرقاوي، انظر: يتيمة الدهر، أبو منصور الثعالبي (ج٢/ص٢٨٣).

الباب الثاني: وَطَوَاعِيَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ أَنفَعُ لَنَا

فإنّ المتأمِّلَ لحالِ الأمّةِ الإسلامية اليومَ ليتملكُ قلبَهُ شعورٌ بالحزنِ والأسى على ما آلَ إليه حالُها؛ من تكالُبِ أعدائِها عليها، والذلّةِ والمهانةِ التي وصلت إليها، بعد أن كانت أعزّ الأمم! أمةٌ بعثها اللهُ –سبحانَه وتعالى– لتكونَ خيرَ أمة أخرجت للناس، أمةٌ وُجِدتْ لتعلو ولا يعلى عليها، لتكونَ في مقدمة ركبِ الأمم، لا في مؤخرها!

إِنِيّ تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى مُؤَرِّقَةٌ *** مجْدًا تَلِيدًا بِأَيْدِينَا أَضَعْنَاهُ
أَنَّى اتَّجَهْتَ إِلى الإِسْلاَمِ فِي بَلَدٍ *** تجِدْهُ كَالطَّيرِ مَقْصُوصًا جنَاحَاهُ[١]

هذه الأمة إنما اكتسبت عزَّها وسموَّهَا ورفعتَها بقيامِها بأمْرِ ربها، وتطبيقِها لحُكمِه؛ قال تعالى: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: {وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء: ١٤١]، وهذا الوعدُ لا يتخلّفُ في أيِّ زمانٍ أو مكان ما أتى العباد بسببه وشرطِه؛ ألا وهو الإيمانُ بالله سبحانهُ وتعالى، والذي يتحقق بامتثال شرعِ الله وإعلاءِ كلمتِه، والجهادِ في سبيلِه. ولكن لما غفلَ أبناءُ هذه الأمّة عن وصية الله في قوله: {يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: ٥٥]، وتغاضَوا عن التخويفِ والتهديد في قوله: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣]، وتهاونوا بالأمر الذي وُكِلَ إليهم في قوله: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ} [الزخرف: ٤٣]، وتنكّبوا عن جادّةِ العزِّ في قوله: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} [التوبة: ١٤–١٥]: حينها ألبسَهم عدوُّهم رداءَ الذُّل، وأشعرَهم شعَارَ الهوان، وسامَهم سوء

[١] بيتين من قصيدة وقفة على طلل، الشاعر محمود غنيم. انظر: الأعمال الكاملة لمحمود غنيم (ص٧٩).

العـذاب، وضـامَهم بأليمِ العقـاب، وخيّمَ ظلامُ الغفلـة على هـذه الأمـة، وطـال ليـل رقادِها.

فصل: دعاة على أبواب جهنم

ولكنَّ هـذه الأمـة أمـةٌ عصيّةٌ أبيـة تأنَفُ الـذلَّ وتأبى الضـيم، فهي وإن أصـاب جسدَها الآلامُ وأثخنتهُ الجراح، إلا أنه لا يلبث أن يستجمعَ قواه، ويستعدّ للنهوض إيذانًا ببزوغ فجرِ الإسلام وطلوعِ شمسِ التوحيد من جديد. وها نحنُ اليومَ أمام صفحةٍ جديدة من صفحاتِ الصحوةِ في هذه الأمة، بعد أن أدركت حقيقةَ معركتِها ووعتْ مخططاتِ أعدائها بها؛ ولكنّ هذه الصحوة صاحَبَ مسيرَها الكثيرُ من الدخل، وعكَّرَ صفوَها الكثيرُ مِن الدّغَل، وهذا مصداقُ حديث الصادِقِ المصدُوق ﷺ كما في الصحيحين من حديثِ حُذيفة قال: (كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّا كُنَّا فِي جاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجاءَنا اللَّهُ بِهَذا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قالَ: "نَعَمْ"، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ هذا الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قالَ: "نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ"، قُلْتُ: وَما دَخَنُهُ؟ قالَ: "قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ"، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قالَ: "نَعَمْ؛ دُعاةٌ إِلَى أَبْوابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجابَهُمْ إِلَيْها قَذَفُوهُ فِيها"، قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ صِفْهُمْ لَنا، فَقالَ: "هُمْ مِنْ جِلْدَتِنا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنا").

نعم هذا الدَخَلُ والزغل إنما هو من أناسٍ آلمهم حال أمتهم؛ فأرادوا النهوض بها، ولكنّهم بغير هدي نبيهم ﷺ اهتدوا، وغيرِ سبيله سلكوا؛ فبتنا نرى مناهجَ أجنبية غريبة دخيلة على ديننا، فتارة نراهم في البرلمانات الشركية، والمجالس التشريعية، وتارة ينادون بالديموقراطية، وأخرى يدعونَ إلى الانخراط في الجيوش الطاغوتية، وضرورة

المشاركة في العملية السياسية، وكتابة دستور البلاد المحادّ لدين ربِّ العباد، وأخرى يمدُّون حبالِ الود بينهم وبين الصليبيين وأذنابِهم من الحكام المرتدين، وأخرى وأخرى في سلسلة يطولُ ذكرها وسردها، وإذا ما جُوبِه أصحابُها بضلالِ هذه المناهج وفسادها؛ أشهروا في وجهِ خصومِهم سلاحَ شُبهتهم: إنّ في ذلك مصلحةَ الدعوة! هذه المصلحة التي أضحت متّكئًا يتكئون عليه لتبرير مواقفهم وتنازلاتهم، وإن كان في هذه المواقف وتلكم التنازلات الانسلاخَ من دين ربِّ الأرض والسماوات! هذه المصلحة التي غدت بحقّ طاغوتًا يُعبد من دون الله سبحانه وتعالى، وترى أصحابَ هذه المصلحة المزعومة لا يتورعون عن نبزِ مخالفيهم ومنتقديهم بأشنع الألقاب، ونعتِهم بأبشع الصفات، ورميِهم بعدم فقههم للواقع، وعدمِ إلمامهم بمقاصد الشرع!

وقد قضى اللهُ سبحانه وتعالى قضاءً مُبرَمًا: أنه لا تزال طائفة من هذه الأمّة ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك، وانطلاقًا من هذا: أحببتُ أن أذكرَ مفهوم مصلحةِ الدعوةِ عندَ هذه الطائفة، وكيفية تطبيق أفرادِها لهذا المفهوم؛ مُسترشِدًا بأقوالِ أئمةِ الهُدى ومصابيحِ الدجى؛ لعله يكونُ نبراسًا تنيرُ درب الهدايةِ لمن زلّت به قدمُه، وحاد به عقلُه عن طريقِ الله القويم وصراطِه المستقيم.

فصل: مصلحة الدعوة

إنّ أهلَ الطائفةِ المنصورة يحرصونَ غايةَ الحرصِ على تحقيقِ مصلحةِ الدعوة؛ إذ همْ لم ينطلقوا دعاةً إلى الله إلا ابتغاء تحقيق هذه المصلحة، ومصلحةُ الدعوةِ عندَهم تكمنُ في الحفاظِ على هذه الدعوة بيضاءَ نقية من أن يشوبَها دخلٌ أو دغل؛ فيؤدونها كما أُنزِلت لم يُسلب عرضُها، ولم يشوّه وجهها؛ وذلك بالتقوّل على الله بغير علم، أو الإحداث والابتداعِ في دينه، أو الترخُّصِ بالباطل، أو الركونِ للذين ظلموا،

فضـلًا عن التلطخ والتـدنس بأرجـاسِ الشـرك وأوحالـه، فـإن فعـل ذلـك بـزعم تحقيـق مصلحة الدعوة هو جهلٌ مدقع، وهوى متبع، وشبهةٌ راسخة، وشهوةٌ غالبة، فضلًا عن كونه خِدعَةَ إبليس، وهو مسلكُ من لم يرد مصلحةَ الدعوة طرفة عين، وإنما أراد تدميرَ الدعوةِ من أساسِها، وخلعَها من جذورها، واستبدالَ الأوهام والظنون بها، وإن ظن أنه يحسن صنعًا!

وأهـلُ الطائفـة المنصـورة لا يخدعون أنفُسـهم تحت زعم تحقيـق مصـلحة الـدعوة توصـلًا لتحقيـق مصـالحَ خاصـة، وحظـوظٍ ذاتيـة، تصـبغ ويخلـع عليهـا رداءُ الشـرعية تلبيسًا وتمويهًا، كما لا يتخذ أهلُ الطائفة المنصورة من مصلحة الدعوة تكأة للتنصل والتفلت من القيام بأمر الله والقوامَة عليه علمًا وعملًا دعوةً وجهادًا؛ إيثارًا للسلامة وحبًّا للدعة، ورغبة عن التعرض للبلاء في ذات الله، كما يودُّ أحدُهم أن لو كان باديًا في الأعراب يسألُ عن أخبار المسلمين، بل غايةُ مصلحةِ الدعوة عند أهلِ الطائفةِ المنصورة: القيامُ بأمرِ الله على الوجه الـذي يحبه ويرضـاه، وإن تلفت في سبيل ذلـك الأجساد، وأُزهقت لتحقيقه الأنفسُ والأرواح.

إن الطائفةَ المنصورة غاياتها ربانية، ووسائلُها شرعية، وعندما تنحرف طائفـةٌ عن هـذه الجادة، وتتخـذُ لنفسِـها طرقًـا ووسـائلَ غـير منضـبطةٍ بالشـرع بحجـة مصـلحة الـدعوة؛ فإنها تخرجُ عن حدِّ ورسم ووصـف الطائفـةِ المنصورة حيث فارقتهـا في سيرِها ومسيرها فلا لقاء.

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتَ مُغَرِّبًا *** شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ ومُغرِّبِ[١]

والكلامُ على مصلحة الدعوة يتمثل في عدةِ محاور؛

[١] البيت بلا نسبة في البصائر والذخائر (ج٨/ص١٧٨). وكان ينشده أبو إسحاق الشيرازي كما في الوافي بالوفيات (ج٦/ ص٤٣)، والروض المعطار (ص ٤٤٤).

المحور الأول: تحديدُ حقيقةِ مصلحَةِ الدّعوة.

قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ* إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٦-٥٨]؛ فهذا نصٌّ من العليمِ الخبير بمنتهى الحصر والقصر على أنّه لم يخلقِ الخلق إلا لتحقيق غاية واحدة وهدفٍ محدد؛ وهو القيام بعبادته وحده، وأنه سبحانه قد فرَّغهم لذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (العبادةُ لله هي الغايةُ المحبوبة له، والمرضيَّة له، الَّتي خلق الخلقَ لها، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وبها أرسلَ جميع الرُّسُل كما قال نوحٌ لقومه: {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وغيرهم لقومهم، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ} [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: ٥٢])[١].

فعلم مما سبق أن مصلحة الدعوة هي في تحقيق العبودية لله رب العالمين وفق ما جاء به رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وبذلك تتحددُ مصلحة الدعوة بصورةٍ قاطِعة بعد مبعثه ﷺ في تحقيق أصلين:

- إفرادِ الله وحده بالعبادة،
- وإفرادِ رسوله ﷺ بالمتابعة.

[١] مجموع الفتوى، (ج١٠/ص١٥٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: (وجماعُ الدِّينِ شيئان؛ أحدهما: ألا نعبدَ إلا اللهَ تعالى، والثاني: أن نعبده بما شرَّع؛ لا نعبده بالبدع كما قال تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: ٧]، قال الفضيل بن عياضٍ: أخلصُه وأصوبُه، قيل له: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكونَ خالصًا صوابًا، والخالصُ أن يكون خالصًا لله، والصوابُ أن يكونَ على السنّة. وكان عمر بن الخطَّاب يقول في دعائه: اللَّهمَّ اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا. وهذا هو دينُ الإسلام الذي أرسل الله به رسلَه، وأنزل به كتبَهُ)[١].

ولذلك كان تحقيق هذين الأصلين هو المقصودُ الأصيل للولاية في الإسلام على التحقيق، وليس للولاية من مقصد آخرَ غيره، ومن روائع ما يدل على هذا قوله تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٥٢]، روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: (كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ ستَّة نفرٍ، فقال المشركون للنَّبيِّ ﷺ: اطرد هؤلاءِ لا يجترؤون علينا، قال: وكنتُ أنا وابن مسعودٍ ورجلٌ من هذيلٍ وبلالٌ ورجلان لستُ أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاءَ الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام: ٥٢])؛ قال القرطبي -رحمه الله-: (وكانَ النبي ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعًا في إسلامهم، وإسلامِ قومهم، ورأى أنَّ ذلك لا يفوِّتُ أصحابَه شيئًا، ولا يُنقِصُ لهم قدرًا، فمالَ إليه، فأنزلَ الله الآية، فنهاه عمَّا همَّ بِهِ من الطَّرد، لا أنَّه أوقع الطَّرد)[٢]، فرغم أن إسلامَ زعماءِ الكفرِ وقادته مما لا يختلف في كونه مصلحة عظيمة للدعوة؛ بل هو نصرٌ وفتح كبير لها،

[١] المرجع السابق، (ج٢٨/ص٢٣).

[٢] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (ج٦/ص٢٨٤-٢٨٥). ونقل نفس الشرح في تفسير الآية.

ورغم أن مفسدةَ طردِ وإبعادِ هؤلاءِ النفر المستضعفين من المسلمين عن مجلس أولئك الزعماء والقادة، مما يظهر لأكثر العقول أنها أقل بكثير من مصلحة زعماءِ الكفر وقادته، لا سيما مع استرضاءِ هؤلاء المستضعفين، وإعلامهم بأن هذا الإجراء إنما هو إجراء مؤقت لمصلحة الدعوة، إلا أن اللهَ سبحانه وتعالى بيَّن أن تلكَ المصلحةَ مُلغاة لا اعتبار لها إذ جاءت من هذا الطريق، كما بيّن تعالى أن حفظَ دينِ هؤلاءِ النفر المستضعفين هو المصلحة الحقيقية التي يجب الاهتمامُ بها، والتعويلُ عليها، وبتأمل الوصف الذي علّق عليه المولى سبحانه هذا الحكم، وهو قولُهُ: {يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام: ٥٢]، ندرك أن عبادتَهُ سبحانه على النحو الذي يحبُّه ويرضاه هي مصلحة الدعوة التي يريدها الله سبحانه، والتي من أجلها أنزلَ هذا الدين، وأرسلَ عبادَهُ المرسلين.

وهذه الآيات السابقة نصوص ظاهرة في أن مسألة مصلحةِ الدعوة ليست مسألةَ تنازلات يسارعُ أهل الدعوة لتقديمها للباطل وأهله استرضاء لهم واستجذابًا؛ وإنما هي مسألة التزام بتبليغ تلك الدعوة على الصفة التي يحبُّها الله ويرضاها، وإن كانت النتيجة إعراضَ ذوي القوة والجاه والسلطان في مقابلِ الحفاظِ على نفرٍ قليلٍ من المستضعفين.

قال سيد -رحمه الله تعالى- عند تفسير لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: ٥٢]: (ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحابَ الدعواتِ -بعد الرسل- والرغبَة الملحة في انتشار الدعوات وانتصارها؛ تدفعُهم إلى استمالةِ بعضِ الأشخاص أو بعضِ العناصر بالإغضاء في أوّل الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة، يحسبونه هم ليس أصيلًا فيها، ومجاراتهم في بعض أمرهم كي لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها! ولقد تدفعهم

كذلك إلى اتخاذِ وسائلَ وأساليب لا تستقيمُ مع موازينِ الدعوةِ الدقيقة، ولا مع منهجِ الدعوة المستقيم؛ وذلك حرصًا على سرعةِ انتصارِ الدعوةِ وانتشارها، واجتهادًا في تحقيقِ «مصلحة الدعوة» ومصلحةُ الدعوة الحقيقية في استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير، أما النتائج فهي غيبٌ لا يعلمُه إلا الله.

فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج؛ إنما يجب أن يمضُوا على نهجِ الدعوة الواضحِ الصريحِ الدقيق، وأن يدعوا نتائِج هذه الاستقامة لله، ولن تكونَ إلا خيرًا في نهاية المطاف، وها هو القرآن الكريم ينبههم إلى أن الشيطانَ يتربّصُ بأمانيهم تلك لينفذَ منها إلى صميم الدعوة، وإذا كان الله قد عصم أنبياءَهُ ورسلَه فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتِهم الفطرية إلى دعوتهم؛ فغيرُ المعصومينَ في حاجةٍ إلى الحذرِ الشديد من هذه الناحية، والتحرج البالغ؛ خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة والحرص على ما يسمُّونَه «مصلحة الدعوة».

إن كلمة «مصلحة الدعوة» يجبُ أن ترتفع من قاموسِ أصحاب الدعوات؛ لأنها مزلةٌ، ومدخلٌ للشيطان يأتيهم منه، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص! وقد تتحولُ «مصلحة الدعوة» إلى صنمٍ يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهجَ الدعوةِ الأصيل! إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج، دون التفاتٍ إلى ما يعقبه هذا التحري من نتائج قد يلوحُ لهم أن فيها خطرًا على الدعوة وأصحابِها! فالخطرُ الوحيد الذي يجب أن يتّقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب، سواء كان هذا الانحراف كثيرًا أو قليلًا، والله تعالى أعلم منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين، إنما هم مكلفون بأمرٍ واحد: ألا ينحرفوا عن المنهج، وألا يحيدوا عن الطريق)[1].

---

[1] في ظلال القرآن، (ج٤/ص٢٤٣٦).

إنَّ محاولاتِ كفار قريش لم تتوقف لصرف النبي ﷺ عن الحق الذي جاء به ليلتقي معهم ولو في شيء قليل؛ وذلك بالترغيبِ تارة، وبالترهيبِ أُخرى، يقولُ الله سبحانه: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٨-٩]، وقال تعالى: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: ٧٣-٧٤]؛ قال الشاطبي -رحمه الله-: (فكذلك كانوا مع النبي ﷺ، فأنكروا ما توقَّعوا معَهُ زوالَ ما بأيديهم؛ لأنَّه خرج عن معتادهم، وأتى بخلاف ما كانُوا عليه من كفرهم وضلالِهم، حتَّى أرادوا أن يستزلوه على وجه السّياسة في زعمهم، ليوقعوا بينهم وبينه المؤالفة والموافقة ولو في بعض الأوقات، أو في بعضِ الأحوال، أو على بعض الوجوه، ويقنعوا منه بذلك، ليقفَ لهم بتلك الموافقة واهي بنائهم، فأبى -عليه الصَّلاة والسَّلام- إلا الثُّبوتَ على محض الحقِّ، والمحافظةَ على خالِصِ الصَّواب، وأنزل الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} إلى آخر السُّورة، فنصبوا له عند ذلك حربَ العداوة، ورموهُ بسهام القطيعة، وصار أهل السلم كلهم حربًا عليه، وعاد الوليُّ الحميمُ عليه كالعذابِ الأليم)[1].

المحور الثاني: العمل بالشرعِ والتمسكُ به هو عينُ تحقيق المصلحة.

وهذا مقررٌ إجمالًا من وجهين؛

الوجهُ الأول: أنّ اللهَ لم يشرع هذا الدينَ إلا للعمل به، وابتلاء العباد بالتكاليف، والمكلفُ عبدٌ مربوب، فكانت مصلحة الاستجابة للتكاليف، والتمسكُ بالشرع: هي أسُّ ورأس المصالح التي يريدها الله -سبحانه وتعالى- من المكلفين، وهي كذلك أس ورأسُ المصالح التي يحققها العبد، والنصوصُ المقررةُ لهذا الأصلِ كثيرةٌ جدًّا إذ هو أصلُ

---

[1] الاعتصام، (ج١/ص١١-١٢).

الإسلام ومبناه وغايةُ التعبد ومنتهاه، وقد قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب: ٣٦]، قال ابن كثير -رحمه الله-: (فهذهِ الآية عامّةٌ في جميعِ الأمور، وذلكَ أنه إذا حكمَ اللهُ ورسولُه بشيءٍ فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا، ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]، ولهذا شدَّدَ في خلافِ ذلك فقال: {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب: ٣٦]، وقوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣])، قال ابن القيم -رحمه الله-: (فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمنٍ أن يختارَ بعد قضائِه وقضاءِ رسوله، ومن تخيّر بعد ذلك؛ فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا)[١].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النور: ٦٣]، عن ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- قال: (لا تقولوا خلافَ الكتابِ والسُّنةِ)[٢]، وبنحو الآية السابقة قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢]؛ قال ابن القيم -رحمه الله-: (فإذا كان رفعُ أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوطِ أعمالهم؛ فكيف تقديمُ آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاءَ به ورفعُها عليه؟ أوَ أليس هذا أولى أن يكون مُحبطًا لأعمالهم؟)[٣].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: "هَذَا سَبِيلُ اللهِ"، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَذِهِ سُبُلٌ

[١] أعلام الموقعين، (ج١/ص١٠٥).
[٢] رواه الطبري في تفسيره، (ج٢١/ص٣٣٥).
[٣] أعلام الموقعين، (ج١/ص١٠٦).

عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ"، ثُمَّ قرأ {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣])[1]، وقد أخرج ابن حبان -رحمه الله- هذا الحديثَ في صحيحه ثم ترجم له بقوله: (ذكرُ الإخبارِ عمَّا يجبُ على المرء من لزوم سنن المصطفى ﷺ، وحفظِهِ نفسَهُ عن كلِّ من يأباها من أهل البدع، وإن حسَّنوا ذلك في عينه وزيَّنوه)[2].

الوجهُ الثاني: أن الشريعة إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد على خير وجهٍ وأكملِ صورة في الدُّنيا والآخرة، فحيثما كان الشرع كانت المصلحة، بل لا مصلحة بخلاف الشرع أبدًا؛ ولذا كان التمسك بالشرع هو عين الحرص على تحقيق المصلحة لمن أراد المصلحة.

وقد وصف اللهُ -سبحانه وتعالى- كتابَه بأنه هدى وشفاء ورحمة، وبشرى وضياء ونور وغير ذلك من الأوصاف الدالة على أن المصلحة -كل المصلحة- محصورة في اتباعه والتمسك بما فيه، قال تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]، وقال رسول الله ﷺ كما في حديث العرباض بن سارية -رضي الله عنه-: "فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"[3]، قال ابن رجب -رحمه الله-: (قولُه: "عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ": كناية عن شدَّةِ التَّمسُّك بها، والنواجذ: الأضراس)[4].

[1] رواه أحمد والنسائي والدارمي والحاكم وابن حبان (إسناده حسن، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي).

[2] صحيح ابن حبان: التقاسيم والأنواع، (ج٤/ص٤٠١).

[3] رواه المرزوي في السنة بلفظه، وأحمد وأبو داود وابن ماجه والتِّرْمِذِيُّ دون "من بعدي"، وقال التِّرْمِذِيُّ: حديث حسن صحيح. وقال أبو نعيم: هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين.

[4] جامع العلوم والحكم، (ج٢/ص١٢٦).

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ"[1].

فهذه النصوص السابقة كلُّها قاطعة الدلالة في أن هذه الشرعَةِ المطهرة لم تأتِ أصلًا إلا لتحقيقِ مصالحِ العباد في الدارين في أجلِّ صورها وأرفعها، كما تدل تلك النصوص على أن المصلحة كل المصلحة هي في اتباع الشرع والتمسك به.

قال العز بن عبد السلام: (الشريعةُ كلُّها مصالح، إمَّا تدرأ مفاسدَ أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}؛ فتأمَّل وصيَّته بعد ندائه، فلا تجد إلَّا خيرًا يحثُّك عليه أو شرًّا يزجرك عنه، أو جمعًا بين الحثِّ والزَّجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثًّا على اجتناب المفاسد، وما في بعضِ الأحكام من المصالح حثًّا على إتيانِ المصالح)[2].

ومن ثمّ كان أهل الطائفة المنصورة لا يتألّونَ على اللهِ -سبحانه وتعالى- بحجة مصلحة الدعوة، ولا يقولونَ عليه بغير علم؛ وذلك أنهم يوقنون أن الذي أنزلَ هذه الدعوة وأمر بتبليغها والمحافظة عليها كما أنزلت هو الأعلم بالدعوة ومصلحتها، وأنه سبحانه لم يأمر بما أمر به إلا تحقيقًا لمصلحةِ الدعوة ومصلحة الداعين والمدعوين على السواء. فحيثما كان الشرع كانت المصلحة؛ وهذا من لوازم اليقين في صحة هذا الشرع وأحقيته، فالشريعة كلها مصالح من رب الأرباب لعباده، فيا خيبة من لم يقبل نصحه في الدُّنيا والآخرة.

فعن رافعِ بن خديج -رضي الله عنه-، قال: (كُنَّا نُحاقِلُ الأرضَ على عهد رسول الله ﷺ، فنكريها بالثُّلث والرُّبع والطَّعام المسمَّى، فجاءَنا ذاتَ يومٍ رجلٌ من عمومتي

[1] رواه البيهقي في الشعب (ج١٣/ص١٩)، والبغوي في شرح السنة (ج١٤/ص٣٠٣).

[2] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، (ج١/ص١١).

فقال: نهانا رسولُ الله ﷺ عن أمرٍ كان لنا نافعًا، وطواعيةُ اللهِ ورسولهِ أنفع لنا، نهانا أن نُحاقل بالأرض فنكريها على الثُّلث والرُّبع والطَّعام المسمَّى وأمر ربَّ الأرض أن يزرعها أو يُزرِعَها، وكره كراءها وما سوى ذلك)[1]، فتأمل قول الصحابي –رضي الله عنه–: (عَنْ أَمْرٍ كَانَ لَنَا نَافِعًا، وَطَوَاعِيَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ أَنْفَعُ لَنَا)، فالصحابي يصرح بأنهم كانوا يرون ما نهاهم عنه ﷺ نافعًا إلا أنهم رغم ذلك تركوه يقينًا منهم –رضي الله عنهم– أن المصلحة هي طاعته ﷺ والامتثال لما جاء به، مع القطع بأن أمره ﷺ هو عين المصلحة في الدُّنيا والآخرة، فما قال رسول الله ﷺ فهو حق، وإن أدى ذلك إلى تعطيلٍ وإلغاءٍ ما قد تستحسنه العقول وتستصلحه، قال الشاطبي –رحمه الله–: ([إنَّ] كتابَ الله وسنَّة نبيّه لم يتركا في سبيل الهداية لقائلٍ ما يقول، ولا أبقيا لغيرِهما مجالًا يُعتدّ فيه، وأنَّ الدِّينَ قد كمل، والسَّعادة الكبرى فيما وضع، والطِّلْبَة فيما شرع، وما سوى ذلك فضلالٌ وبهتانٌ، وإفكٌ وخسرانٌ، وأنَّ العاقِدَ عليهما بكلتا يديه مستمسك بالعروة الوثقى، ومحصلٌ لكلية الخير دنيا وأخرى، وما سواهما فأحلامٌ وخيالاتٌ وأوهامٌ)[2].

فصل: تلاعب أهل الضلال بالدين بحجة مصلحة الدعوة

أما السعيُ لالتماس المصلحة بمخالفة الكتاب والسنة؛ فهو فعلُ أهل الشكِّ والارتياب الذين ابتلوا بضعفِ اليقين وهم لا يشعرون، وحالهم مع هذه الشريعة كما يقول ابن القيم –رحمه الله–: (جعلوا الشَّريعة قاصرةً لا تقوم بمصالح العباد، مُحتاجةً إلى غيرها، وسدُّوا على نفوسهم طرقًا صحيحةً من طرق معرفة الحقّ)[3]، فكأنّ الذي أنزل هذه الشريعة لا يعلم أحوال الناس وما يصلح لهم وما لا يصلح، وأن العبد الظلومَ الجهول قد أدرك المصلحة التي فاتت المولى –سبحانه وتعالى– الذي يعلم السر

---
[1] رواه مسلم.
[2] الاعتصام، (ج١/ص١٩).
[3] الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، (ج١/ص٣٠).

وأخفى -تعالى الله عما يفتريه الظالمون أهل الجهل والهوى والارتياب؛ ولذا كان التماس المصلحة بمخالفة الكتاب والسنة مجاوزة من العبد لقدره، وتطاولًا لما لا يصلح له مع كونه تعديًا على مقام الألوهية، ومنازعةً سمجةً للرب الجليل -سبحانه وتعالى-؛ إذ الله هو الذي خلق الخلق وهو الأعلم بمصالحهم وما يصلحهم في كل زمان ومكان، فهو سبحانه العليم بهم وبما يصلح لهم. قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤]، وكم من أمر تظنه العقول المصلحة وهو عينُ المفسدة! وكم من أمر تظنه العقول المفسدة ويكون هو عين المصلحة! والنسبةُ بين علم الله -سبحانه وتعالى- بالمصلحة وعلم العبد بها: هي النسبة بين الخالق والمخلوق، والعبدُ عبدٌ مربوب ليس له من الأمر شيء، وواجبُه هو الخضوعُ والطاعة والامتثال، لا الاعتراض والمعارضة مع تيقنه بأن ما شرعَهُ اللهُ له هو عين المصلحة؛ فقد قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣]، وقال سبحانه {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} [القصص: ٥٠]؛ قال ابن حزم -رحمه الله-: (في هذه الآي إبطالُ أن يتبع أحد ما استحسن بغير برهان من نصٍّ أو إجماع، ولا يكون أحدٌ أحوط على العباد المؤمنين من الله خالقِهم ورازقِهم وباعثِ الرسل إليهم، والاحتياط كله اتباع ما أمر الله به، والشناعة كلها مخالفته)[١].

وقال تعالى: {قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ} [البقرة: ١٤٠]، وقال كذلك: {وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦]، فهيهات للمصلحَة أن تكون في خلاف النص، بل خلافُ النص هو عينُ المفسدة، وإنما المصلحة ما قرره النص من فعلٍ أو ترك، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- كذلك: (والعملُ إذا اشتملَ على مصلحةٍ ومفسدةٍ فإنَّ الشَّارع حكيمٌ؛ فإن غلبت مصلحتُه على مفسدتِه شَرعَهُ، وإن غلبت مفسدتُه على مصلحتِه لم يُشرِّعهُ؛ بل نهى عنه؛ كما قال تعالى: {كُتِبَ

[١] الإحكام في أصول الأحكام، (ج٦/ص١٩).

عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦]...)، إلى أن قال: (وهكذا ما يراه النَّاس من الأعمال مقرِّبًا إلى الله ولم يُشرّعه الله ورسوله؛ فإنَّهُ لا بُدَّ أن يكون ضررُه أعظمَ من نفعه، وإلَّا فلو كان نفعُه أعظم غالبًا على ضرره لم يهمله الشَّارعُ؛ فإنَّهُ ﷺ حكيمٌ لا يهمل مصالح الدِّين، ولا يفوِّت المؤمنين ما يقرّبهم إلى ربِّ العالمين)[١].

ولذا فإن مجرّد تصوُّر هذا القول بتقديم المصلحة على النص كافٍ في إبطاله؛ إذ يفتحُ بابَ المروقِ من الدين والانسلاخ من أحكام الشرع على مصراعيه، هذا فضلًا عن فتح باب الإحداث والابتداع والتحكم بالشرع بنجاسة الآراء وزبالة الأفكار والأهواء؛ إذ لا يعجزُ كلُّ مبطلٍ عن القول بأنه ينشد المصلحة من باطله الذي جاء به وأحدثه، وقدّمه على النص، وقد قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١١-١٢]، قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب -رحمهم الله جميعًا-: (في الآية دليلٌ على وجوبِ اطِّراحِ الرأيِ مع السُّنةِ، وإن ادَّعى صاحبُه أنه مُصلِحٌ، وأنَّ دعوى الإصلاحِ ليسَ بعذرٍ في تركِ ما أنزلَ اللهُ)[٢].

وتأمّل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء: ٦٠-٦٢]، فإرادتُهم

---

[١] مجموع الفتاوى، (ج١١/ص٦٢٣-٦٢٤).

[٢] تيسير العزيز الحميد، (ص٤٩١).

الإحسان والتوفيق لم تُغنِ عنهم فيما وقعوا فيه من الكفر؛ بل كانت هي من أسبابِ ذلك، قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: (أخبر تعالى عن هؤلاء بأنَّهم إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرَّسول أعرضوا عن ذلك، ولم يستجيبوا للدَّاعي، ورضُوا بحكم غيره، ثمَّ توعَّدهم بأنَّهم إذا أصابتهم مصيبةٌ في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم، بسبب إعراضهم عمَّا جاء به الرَّسول وتحكيمِ غيره والتَّحاكُمِ إليه، كما قال تعالى: {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} [المائدة: ٤٩]، اعتذروا بأنَّهم إنَّما قصدوا الإحسان والتَّوفيق، أي بفعل ما يُرضِي الفريقين ويوفِّق بينهما، كما يفعله من يَرُوم التَّوفيقَ بين ما جاء به الرَّسول ﷺ وبين ما خالفه، ويزعُم بذلك أنَّه مُحسِن قاصِد للإصلاح والتَّوفيق، والإيمانُ إنَّما يقتضي إلقاءَ الحرب بين ما جاء به الرَّسول وبين كلِّ ما خالفه من طريقةٍ وحقيقةٍ وعقيدةٍ وسياسةٍ ورأيٍ. فمَحْضُ الإيمانِ في هذا الحرب، لا في التَّوفيق؛ وبالله التَّوفيق)[١]، وما أعجبَ قول الإمام أبي عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي -رحمه الله تعالى- قال: (الواجبُ على جميع أهل العلم والإسلام: أن يلزموا القصد للاتباع، وأن يجعلوا الأصول التي نزل بها القرآن وأتت بها السنن من الرسول ﷺ غاياتٍ للعقول، ولا يجعلوا العقول غاياتٍ للأصول)[٢]!

فصل: قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد

وهنا لا بدّ من التنبيهِ على أمرٍ هو غاية في الأهمية؛ وهو أنّ الموازنةَ عند إنزال الأحكام الشرعية على أرضِ الواقع مما جاء به الشرع وحث عليه وندب إليه، وهذا من الفقه الواجب حال تعاطي الأحكام الشرعية والتعامل معها، إلا أنّ أهل الطائفة المنصورة عندما يتقيدون بقاعدة الموازنة هذه؛ فإنهم يجعلون الشرع هو المرجِعُ في تقدير

[١] أعلام الموقعين، (ج١/ص١٠٤).

[٢] رواها أبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله (ج٤/ ص٣٤٨).

المصالحِ والمفاسد، فالمصلحةُ عندهم هي ما ثبت كونُه مصلحةً في شرع الله ودينه، والمفسدةُ هي ما ثبتَ كونه مفسدة في شرع الله ودينه لا غير، ومن ثم فلا يتخذ أهل الطائفة المنصورة من شعار: (فقه الموازنات) تكأة لهم للإحداث والابتداعِ، والقولِ على الله بغير علم، والركونِ إلى الذين ظلموا، وتحليلِ الحرام وتحريم الحلال، والتلاعبِ بالأحكام الشرعية فِعلَ الكثيرين ممن قد جعلوا المرجع في تقدير المصالح والمفاسد إلى عقولهم وأهوائهم، فأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل! حيث استحسنوا ما استقبحه الشرع، واستقبحوا ما استحسنه الشرع؛ ثم جعلوا القول بالموازنات حصنًا يلوذونَ بهِ وملجأ يلجؤون إليه، ووسيلة لنيل أغراضهم، ودرعًا يدرؤونَ به عن أنفسهم، وسيفًا يُشهرونه في وجه مخالفهم.

وهذا ما دل عليه قوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٧]، جاء في سبب نزول هذه الآيات أنهم لما أسروا الأسارى يوم بدر؛ قال رسول الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: "مَا تَرَوْنَ فِي هذِهِ الْأُسَارَى؟"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا تَرَى يَا بْنَ الْخَطَّابِ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنَا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ؛ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ -نسيب لعمر-؛ فَإِنَّ هؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، قال عمر -رضي الله عنه-: فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِلا تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ

عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ"، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: ٦٧][١]، فدلت هذه الآياتُ وما ثبتَ في سببِ نُزولها على أن تقدير المصلحة إنما مرده لما يشرعه الله ويرتضيه لخلقه، خلافًا لما قد تستحسنه العقول، وإن كانت هذه العقول هي عقول كبارِ رجالات هذا الدين علمًا وعملًا، فكيف بمن دونهم ممن لا نسبة بينه وبينهم علمًا أو عملًا؟

ولا بدّ هنا من الإشارَةِ إلى مسلكٍ يتخذ منه الكثيرون تكأة لتبرير وتمرير ما يهوون، وهو مسلكُ الاستدلال بالقواعد العامة، والجوابُ عليه: أن الذي قرره أهلُ العلم أن إعمال القواعدِ العامة مقيدٌ بالإجماع بعدم مخالفة النصوص، فالاجتهاد وفقًا لتلك القواعد اجتهادٌ باطل بيقين متى خالف ما دل عليه النص، بل هو على التحقيق اجتهاد لم يصادف محلًا فلا محل له؛ ولذا قرر أهل العلم في قواعدهم المتفق عليها أنه لا مساغ للاجتهاد في مورد النص.

ومن صُوَرِ الخلط في قاعدةِ الموازنة والترجيح بين المصلحة والمفسدة وفقًا لمعيارِ الشّرع: أنّ الكثيرين ربما لاموا غيرهم على فعل الأحسن والأكمل، وحمدوه على فعل الأقل؛ لضعف نظرهم أو لإيثارهم ما يظنونه السلامة والورع لضعف فقههم، وإلا فالورعُ ليس في ترك المشتَبِهِ بالمحرم أو المكروه فقط، بل من الورع فعلُ المشتَبِهِ بالمستحب أو بالواجب أيضًا، ومن ذلك ما فعله غلامُ أصحابِ الأخدود؛ حيثُ بذل الغلام نفسَه مؤثرًا القتلَ على الحياة لإظهار الدينِ ونشرِ الدعوة؛ فكان اختياره رضي الله عنه للقتل وحرصه عليه هو عين مصلحَةِ الدعوة.

[١] رواه مسلم والتِّرْمِذِيُّ والبيهقي.

المحور الثالث: المصلحة كمصدرٍ من مصادر الأحكام الشرعية.

اتفق أهلُ العلمِ قاطبةً على أنَّ المصلحة ليست مصدرًا أو دليلًا من أدلة الأحكام الشرعية، وأن تعليل الأحكام بمجرد المصلحة ضلالٌ مبين وقولٌ على الله بغير علم، واتباع للهوى، قد يفضي بصاحبه للكفر، قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣]، وقال أيضًا: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، وقالَ جلَّ وعلا: {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [الأعراف: ٣].

إلا أنّ هناك دائرة ضيقة جدًّا اختلف أهلُ العلم في جوازِ تعميل الأحكام بالمصلحة فيها، وهي دائرة (الأوصاف) التي لم يشهد لها الشرع بالاعتبار أو الإلغاء؛ وهي ما اصطلح عليه بالمصالح المرسلة أو الاستصلاح، قال شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: (لا يجوز إثبات الأحكامِ بمجرَّد الاستحسان والاستصلاح؛ فإن ذلك شرعٌ للدين بالرأي وذلك حرام، لقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى: ٢١])[١]، وقال الشنقيطيُّ -رحمه الله-: قرَّر أهلُ المذاهب أن المصلحة المرسلة ليست حجة في دين الله، كما أوضحه القرافي في التنقيح[٢].

وقولُ البعض بأن الشريعة راعت مصالح العباد، ولكنها لم تنص على جميع جزئيات المصالح إلى يوم الدين وإنما نصت على بعضها: هو خلطٌ بينَ الوقائع والمصالح؛ فالوقائعُ أو النوازل أو الحوادث هي الجزئيات المستجدة إلى يوم الدين، والتي نسلم بأن الشريعة لم تأتِ بالنص على كل مفردة منها، أما المصالح التي تعلل الأحكام بناءً عليها: فمن شأنها أن تكون أوصافًا عامة كلية تنتظم تحتها ما شاء الله

---

[١] الصارم المسلول، (ص٣٣١).

[٢] ذكره الزرقاوي مختصرًا، مذكرة أصول الفقه، (ص٢٦٤).

من مفردات أو جزئيات الوقائع أو النوازلِ أو الحوادِثِ، ما وقع منها أو ما يستجد إلى يوم الدين، وما من مصلحةٍ حقيقية هنا إلا وقد شهد لها الشرع بالاعتبار، فالحق الذي يجبُ اعتقاده هنا: أنه لا وجود لمثل هذا النوع من المصالح التي لم يشهد لها الشرع، وإلا لزم من ذلك اتهام الشرع بالنقصان، وعدم الكمال والحاجة إلى غيره، ولا يخلو الأمر هنا من أحد احتمالين؛

الأول: أن تكون هذه المصلحة التي ذهب العبد إلى تقريرها مصلحة حقيقية فعلًا شهد الشرع لها بالاعتبار وقررها، غير أن العبد لعدم تمام وكمال خبرته بالشرع وطرق الدلالة والاستنباط خُيِّل إليه أن الشرع لم يعتبرها، في حين أنه قد اعتبرها وقرّرها.

الثاني: أن تكون هذه المصلحة التي ذهب العبد إلى تقريرها مصلحةً موهومة، وليست مصلحة شرعية حقيقية وإن استحسنتها العقول واستصلحتها.

المحور الرابع: تحقيقُ التوحيد أعظم المصالح بإطلاق.

إن تحقيق التوحيد غايةُ الغايات التي خلقَ اللهُ الخلق وأنشأهم من العدم من أجلها، وهو من ثم أعظم المصالح التي يحبها الله ويرضاها من خلقه؛ كيف؟ وهو سبحانه وتعالى لم يخلقهم إلا لتحقيقه والقيام به؛ قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٦-٥٨]، قال ابن كثير -رحمه الله-: (ومعنى الآية: أنَّه تباركَ وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء، ومن عصاه عذَّبه أشدَّ العذاب، وأخبر أنَّه غير محتاجٍ إليهم؛ بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم)[١]، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا

[١] تفسير القرآن العظيم، (ج٧/ص٤٢٥).

وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦].

ومما يبيّن أن تحقيقَ التوحيدِ أعظمُ المصالح التي بُعثَ الأنبياء والمرسلون لتحقيقها والحفاظِ عليها: أنّ الله –سبحانه وتعالى– قد بيّن أن جميع الأعمال غير المبنية على التوحيد: محبطة باطلة فاسدة كاسدة لا وجود لها، فهي كعدمها بل أسوأ، قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥]، كما بين تعالى أن هذه الأعمال غير المبنية على التوحيد هي كالسراب؛ الذي ينخدع به الرائي فيحسبه ماءً، فإذا جد في طلبه وجد بين يديه سرابًا تتقطع معه النفس حسرة وندمًا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: ٣٩]، وعن عائشةَ –رضي الله عنها– قَالَتْ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟)، قَالَ: "لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ"[١]، والمراد أنّه لم يكن موحدًا، ولذا لم ينفعه ما جاء به من عملٍ صالح، ولو كثر وعظم، وعن العباس بن عبد المطلب –رضي الله عنه– أنه قال: (يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُكَ فَهَلْ نَفَعَهُ ذَلِكَ؟)، قَالَ: "نَعَمْ؛ وَجَدْتُهُ فِي غَمَرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَحْضَاحٍ"[٢]، ورغم أن نصرةَ النبي ﷺ والغضب له والذود عنه من أعظم الأعمال الصالحة وأجلّها عند الله؛ إلا أنها لما لم تكن مبنية هنا على التوحيد لم تنفع صاحبها شيئًا، ولم تصرف عنه دخول النار والخلود فيها.

---

[١] رواه مسلم.

[٢] رواه مسلم.

فتحقيق التوحيد وإقامَتُه عند أهل الطائفة المنصورة أصلحُ المصالح وأعلاها، والتفريطُ فيه وتضييعُه بالتلبس بضده وهو الشرك أفسد المفاسد وأشدها وأعظمها؛ ولذا كانت مصلحة تحقيقِ التوحيد خارجةً تمامًا عن نطاقِ قاعدة الموازنات التي تكلمنا عليها؛ إذ ليس هناك على الإطلاق مصلحة أعظم من مصلحة تحقيق التوحيد لتُقَدَّمَ عليه، بل ليس هناك مصلحة تدانيه أو تقترب منه فضلًا عن أن تكون هناك مصلحة تجاوزه وتتقدم عليه، كما أنّه ليس هناك مفسدة أعظم وأشد من مفسدة تضييع التوحيد، والتفريط فيه بالتلبس بضده من الشرك؛ فتحقيقُ التوحيد أعظم مصالح الدعوة بإطلاق، كما أن تضييعه والتفريط فيه أفسد المفاسد بإطلاق.

ما لم يك التوحيدُ أصلًا راسخًا *** للعابدين فكل فرعٍ فاسدُ
أرأيت بنيانًا تطاول أهله *** في رفعه والأسُّ هارٍ هامِدُ[1]؟

وصحَّ أنّ قريشًا أرسلَتْ عتبة بن ربيعة، وهو من ساداتها، إلى رسولِ الله ﷺ، فأتاهُ فقال له: يا بن أخي؛ إنَّك منَّا حيث علمت من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النَّسب، وإنَّك قد أتيت قومَكَ بأمرٍ عظيمٍ فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ به من مضى من آبائهم، فاسمع منِّي أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلَّك تقبل منها بعضًا، فقال له رسول الله ﷺ: "قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ"، قال: يا بن أخي؛ إن كنت إنَّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا: جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا: سوَّدناك علينا، حتَّى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا: ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك: طلبنا لك الطِّبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنَّه ربَّما غلب التَّابع على الرَّجل حتَّى يداوى منه، حتَّى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه؛ قال: "أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟"، قال: نعم، قال:

[1] لا يعلم قائلها.

"فَاسْمَعْ مِنِّي"، قال: أفعل، قال: {بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [فصلت: ١-٤]، ثمَّ مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلمَّا سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السَّجدة منها فسجد، ثمَّ قال: "قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ"[١]، ولا شكّ أن عشر معشار هذه العروض، فضلًا عن ذات العروض نفسها، هي مما يسيل له لعابُ الكثيرين اليوم من الحريصين على مصلحةِ الدعوة، لا سيما وقد يقال: إن النبي ﷺ كان بإمكانه بعد أن يستجيب له سادات قريش وزعماؤها، وبعد أن يُذعنوا له بالسيادة والُملك وبعد أن يُسلموا له زمام وقياد أمرهم، وبعد أن يتأكدّ هو ﷺ من استحكام الأمر في يديه: أن يستخدم هذا كله ويوظفه لتحقيق مصلحة الدعوة، وهذا بلا شك أسهل وأهون من البداية بالدعوة من حيث لا شيء، غير أن هذا هو فهم من لم يفهم حقيقة الدعوة، رغم حرصه الشديد على مصلحتها؛ فما كان للدعوة أن تسير ولو لحظة واحدة تحت شعار آخر غير (لا إله إلا الله) لفظًا ومعنى، فتنُنْفَى العبادة في أي صورة من صورها عن كلِّ المعبوداتِ الباطلة التي تُنازعُ اللهَ سلطانه، ويُفرَدُ اللهُ وحدَهُ بالعبادة في كل صورها ومعانيها الظاهرة والباطنة، مع البراءة من الشرك وأهله؛ ولذا كان رده ﷺ قويًّا حاسمًا قاطعًا كلَّ أمل المشركين في صرف الدعوة وحرفها عن جوهرها.

وتأمل بعين البصيرة وعين البصر حديثَ أمِّ سلمة -رضي الله عنها- حين قالت:

(لـمَّا نزلنا أرض الحبشة؛ جاورنا بها خير جارٍ النَّجَاشِيَّ، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا اللهَ، لا نُؤذى، ولا نسمعُ شيئًا نكرهه، فلمَّا بلغ ذلك قُريشًا: ائتمروا أن يبعثوا إلى النَّجَاشِيَّ فينا رجلين جلدين، وأن يُهدوا للنَّجَاشِيِّ هدايا ممَّا يستطرف من متاع

[١] رواه ابن إسحاق، سيرة ابن هشام (ج١/ص٢٩٣-٢٩٤)، (إسناده حسن مرسل)، ورواه ابن أبي شيبة والبيهقي في الدلائل (إسناده حسن).

مكَّة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأَدَمُ، فجمعوا له أَدَمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلَّا أهدوا له هديَّةً، ثمَّ بعثُوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميَّ وعمرو بن العاص بن وائل السَّهميِّ، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كُلِّ بطريقٍ هديَّته قبل أن تُكلِّموا النَّجَاشِيَّ فيهم، ثمَّ قدِّموا للنَّجَاشِيِّ هداياه، ثمَّ سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلِّمهم، قالت: فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، وعند خيرِ جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديَّته قبل أن يكلِّما النَّجَاشِيَّ، ثمَّ قالا لكلِّ بطريقٍ منهم: إنَّه قد صبا إلى بلد الملك منَّا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثَنَا إلى الملك فيهم أشراف قومِهم لنردَّهم إليهم، فإذا كلَّمنا الملكَ فيهم، فتُشِيرُوا عليه بأن يُسلِّمهم إلينا ولا يكلِّمهم؛ فإنَّ قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلمُ بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثمَّ إنَّهما قرَّبا هداياهم إلى النَّجَاشِيِّ فقبلها منهما، ثم كلَّماه، فقالا له: أيُّها الملك؛ إنَّهُ قد صبا إلى بلدك منَّا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنَا إليك فيهم أشرافُ قومِهم؛ من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلمُ بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيءٌ أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النَّجَاشِيَّ كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيُّها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم؛ فأسلمهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النَّجَاشِيَّ، ثمَّ قال: لا هَيْمُ الله لا أسلمهم إليهما، ولا أُكادُ قومًا جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي؛ حتَّى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتُهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني، قالت: ثمَّ أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ

فدعاهم، فلمَّا جاءهم رسوله اجتمعوا، ثمَّ قال بعضهم لبعضٍ: ما تقولون للرَّجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علَّمنا وما أمرنا به نبيُّنا ﷺ، كائنٌ في ذلك ما هو كائنٌ، فلمَّا جاؤوه، وقد دعا النَّجَاشِيُّ أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدِّين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيُّها الملك؛ كُنَّا قومًا أهلَ جاهليةٍ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيءُ الجوار، يأكل القويُّ منا الضَّعيف، فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منَّا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، "فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ"، قال: فعدَّد عليه أمور الإسلام، فصدَّقناه وآمنَّا به واتَّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا وظلمونا، وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سِواك، ورغبنا في جِوارك، ورجونا أن لا نُظلمَ عندك أيُّها الملك، قالت: فقال له النَّجَاشِيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قالت: فقال له جعفرٌ: نعم، فقال له النَّجَاشِيُّ: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرًا من {كهيعص}، قالت: فبكى والله النَّجَاشِيُّ حتَّى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمَّ قال النَّجَاشِيُّ: إنَّ هذا والله والَّذي جاء به موسى ليَخرُجُ من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا فوَ الله لا أسلمهم إليكم أبدًا، ولا أُكَادُ،

قالت أمُّ سلمة: فلمَّا خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنَّهم غدًا عيبهم عندهم، ثمَّ أستأصل به خضراءهم، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة – وكان أتقى الرجلين فينا–: لا تفعل فإنَّ لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون أنَّ عيسى بن مريم عبدٌ، قالت: ثمَّ غدا عليه من الغد، فقال له: أيُّها الملك؛ إنَّهم يقولون في عيسى بن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم فاسألهم عمَّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعضٍ: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نَبِيُّنا كائنًا في ذلك ما هو كائنٌ، فلمَّا دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الَّذي جاء به نَبِيُّنا: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النَّجَاشِيُّ يده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثمَّ قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا؛ فأنتم سُيُومٌ –أي: آمنون– بأرضي، من سبَّكُم غُرِّمَ ثمَّ من سبَّكُم غُرِّمَ، فما أُحِبُّ أنَّ لي دبرًا –أي: جبلًا– ذهبًا، وأنِّي آذيت رجلًا منكم، ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوَ الله ما أخذ الله منِّي الرِّشوة حين ردَّ عليَّ ملكي، فآخذ الرِّشوة فيه، وما أطاع النَّاسَ فيَّ فأطيعُهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ)[1]. فهذا الحديث حديثٌ عظيم القدر كبير الشأن مليء بالفوائد الجليلة، والتي من أبينها: أنّ قضية التوحيد لدى الصحابة الكرام وإن اشتدّ ضعفهم وعظم تكالب الجاهلية عليهم وقهرها لهم: لم تكن يومًا ما موضع مساومة أو موازنة بغيرها من جلب مصلحة وإن عظمت، أو دفع مفسدة وإن اشتدت.

[1] رواه أحمد، (إسناده حسن)، ورواه ابن إسحاق، في السيرة النبوية لابن هشام: (ج١/ ص٣٣٤ – ٣٣٨).

ومما يدل أيضًا على أن مصلحة تحقيق التوحيد لا توزن بغيرها من المصالح من جلب نفع أو دفع ضر؛ ما جاء في قصة إسلام ثقيف، وقد كانوا سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية -وهي اللات- لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرًا واحدًا بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمًّى، وإنما يريدون بذلك فيما يُظهرون أن يسْلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام؛ فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها[1]، فلم يعتبر النبي ﷺ تلك المصالح التي أشار بها وفد ثقيف ليترك لهم بها طاغيتهم اللات؛ من خوفهم من سفهاء قومهم، وإرادتهم تأليف قومهم، وعدم ترويعهم حتى يدخلوا الإسلام، هذا بالإضافة لكونهم حدثاء عهد بإسلام؛ فيحتاجون إلى التأليف حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم فلا يرتدوا.

ولم يستثن الله تعالى من ذلك غير حالة الإكراه الملجئ؛ فهي الحالة الوحيدة التي رخَّص فيها الشارع في إظهار الشرك والكفر عند تحقق شروطها، وحتى في حالة الإكراه الملجئ فإن الإجماعَ منعقدٌ بغير تردد على أن الأخذ بالعزيمة هنا أفضل وأحب إلى الله، وكل هذا تعظيمًا لهذا الأمر، وتنويهًا بخصوصيته؛ قال ابن بطال -رحمه الله-: (أجمع العلماء أن من أكره على الكفر فاختار القتل: أنه أعظم أجرًا عند الله ممن اختار الرخصة)[2].

ونختم الكلامَ في بيان أن تحقيق التوحيد نفيًا وإثباتًا أعظمُ المصالحِ بإطلاق، وأن دعوى تحقيق مصلحة الدعوة بالاستهانة بأمر التوحيد والتلبس بضده من الشرك هو عينُ الفسادِ في الأرض، بل هو أساس كل شر وفساد، بكلامٍ نفيس لشيخ الإسلام

[1] انظر: مغازي الواقدي، (ج٣/ص٩٦٧-٩٦٨)، والبداية والنهاية، ابن كثير، (ج٧/ص٢٠٦).
[2] شرح صحيح البخاري، (ج٨/ص٢٩٥).

ابن تيمية في قوله تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]، قال -رحمه الله-: (قالَ أكثرُ المفسِّرين: لا تُفسدوا فيها بالمعاصي، والدَّاعي إلى غيرِ طاعة الله بعد إصلاح الله إيَّاها ببعثِ الرُّسل وبيان الشَّريعة والدُّعاء إلى طاعة الله مفسدٌ؛ فإنَّ عبادة غيرِ الله والدَّعوةَ إلى غيرِهِ والشِّركَ به هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنَّما هو الشِّرك بالله ومخالفةُ أمره؛ قال الله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم: ٤١] [...]، ومن تدبَّر أحوالَ العالم وجد كلَّ صلاحٍ في الأرض: فسببه توحيد الله وعبادتُه، وطاعةُ رسوله ﷺ، وكلُّ شرٍّ في العالم وفتنةٍ وبلاءٍ وقحطٍ وتسليط عدوٍّ وغير ذلك: فسببُه مخالفةُ الرسولِ ﷺ والدَّعوة إلى غير الله)[١].

نسألُ الله -سُبحانه وتعالى- أن يجعل فيما سقناه من نور الوحيين، وأقوالِ أهل العلم حياةً لنفوسِ أولئكَ الذين مادَتْ بهم الأهواء، وماجت بهم الفتن؛ فأفرزوا للأمة مناهجَ دخيلةً عليها، وسلكوا بها سبلًا نأت بها عن طريق العبودية وجادةِ التوحيد بحجة مصلحة الدعوة تارة، وضغط الواقع أخرى؛ فدعوا إلى المشاركة في جريمة كتابة الدستور الشركي، وجوّزوا الانتساب إلى الجيش والحرس الوثني؛ لتُضجَعَ دعوة التوحيدِ والحق وتنحرَ بسلاح الشرك والباطل، لكن هيهات هيهات لأمةٍ بزغ فجرُ توحيدها، وسطعَ ضياءُ مجدِها، وأشرقَ شمسُ عزِّها: أن يُثنِيَها عن السير في طريقها أمثالُ هذه المواقف، أو يصدها عن المضيّ في دربها أمثالُ هذه الدعوات.

[١] مجموع الفتوى، (ج١٥/ص٢٤-٢٥).

الباب الثالِثُ: القَابِضُونَ عَلى الجَمْرِ

فمِمَّا لا شك فيه أن الواقع هو الوعاء الذي تتجمع فيه الفتن والمحن المتعددة (من شبهات وشهوات وابتلاءات)، على اختلاف صنوفها وأشكالها، في مواجهة أهل الطائفة المنصورة؛ لفتنتهم عن القيام بأمر الله، علمًا وعملًا، دعوة وجهادًا.

ولا شك أن هذه الفتن والمحن لا تُدفع بغير الصبر واليقين، ومن الـمُسَلَّمِ به أن للواقع الجاهلي القائم على غير قاعدة العبودية لله وحده: ضغطًا شديدًا على كاهل كل من يريد القيام بأمر الله؛ حيث المسافة الشاسعة والهوة الواسعة بين أمر الله والواقع، وهذا مع الحرب الضروس التي تُشَنّ لكل مَن نصّب نفسه لهذه المهمة العظيمة من قِبل أركان هذه الجاهلية والعناصر المتعددة المشاركة فيها بوجهٍ أو بآخر؛ وهم:

أولًا: طواغيت الأرض، أهل الحكم، وما في أيديهم من إمكانات وقدرات فائقة للفتنة رغبًا ورهبًا.

ثانيًا: علماء السوء، الذين اشتروا الحياة الدُّنيا بالآخرة، ورضوا بالحظ الخسيس، ولقيمات الذل والعار التي يلقيها إليهم الطاغوت من فتات موائده لإضلال العباد وفتنتهم عن أمر الله.

وَهَلْ أَفْسَدَ[1] الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ *** وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا[2]؟!

ثالثًا: أهل الأهواء وطوائف البدعة، على اختلاف بدعهم وتعدد أهوائهم؛ وذلك أن الاتباع الصادق يكشف زيف ما هم عليه، ويفضح ضلالهم وإضلالهم، ومن ثم

---

[1] اختلفت الروايات: بدل، أهلك، أفسد.

[2] بيت لعبد الله بن المبارك، انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (ج٨/ص٢٧٩)، وتاريخ دمشق، ابن عساكر، (ج٣٢/ص٤٦٧).

يعلنونها حربًا على كل من أراد رد الناس إلى الأمر الأول، وهم في هذا السبيل لا يستحيون من التحالف مع الطواغيت وعلماء السوء، لتكوين جبهة واحدة مشتركة، لصد الناس وفتنتهم عن دينهم.

رابعًا: العوام من الهمج الرعاع، أتباع كل ناعق، ووقود كل فتنة، ممن لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يركنوا إلى ركن وثيق، فهمّهم الأكبر إشباع غرائزهم وقضاء شهواتهم ونيل لذائذهم، لا يعرفون للحياة معنى غير هذا، وبئست الحياة! ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء في خندق الطاغوت وحلفه، وأن يكونوا هم قطيعه الذي يقوده حيث شاء، وعصاته التي يبطش بها بكل من أراد القيام بأمر الله والثبات عليه، وهؤلاء أصناف شتى جمعهم حب الدُّنيا، وألّف بينهم التعلق بزينتها وشهواتها؛ من جاه ومنصب ونساء ومطعم ومشرب وغيرها من حظوظها الفانية، ورحم الله الإمام ابن بطة حيث قال: (والنَّاس في زماننا هذا أسرابٌ كالطير، يتبع بعضهم بعضًا، لو ظهر لهم من يدَّعي النُّبوَّة مع علمهم بأنَّ رسول الله ﷺ خاتمُ الأنبياء، أو من يدَّعي الرُّبوبيَّة: لوجد على ذلك أتباعًا وأشياعًا)! وإذا كان كلامه -رحمه الله- عن زمانه، فهل يستغرب على أهل عصرنا -إلا من رحم الله- الوقوف في صف الباطل وأشياعه لمحاربة الحق وأتباعه؟!

فصل: أشد الناس فتنة

ويساهم في هذا الواقع ويكرّسه فتنة هي أشد على الكثيرين مما سبق؛ وهي ممن عرف الحق أو قام بشيء منه، ولكنه عجز عن القيام به كاملًا، وعلى الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، لسببٍ أو لآخر؛ فراح ينشر الشبهات والأراجيف، لتثبيط كل من أراد القيام بأمر الله على الوجه الذي يرضيه سبحانه، ليسلم له حاله، وتبقى له مكتسباته، وإنما كانت هذه الفتنة أشد وضررها أعظم، لما يمثله التلبيس والتدليس من

خصوصية في إخفاء الحق وصد الناس عنه، ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (ولا يُنفقُ الباطل في الوجود إلا بشوب من الحقِّ)[١]، وبهذا الترتيب العجيب والتمازج الشديد؛ أضحى الأمر كما قال القائل:

وَلَتَشْهَدَنَّ بِكُلِّ أرْضٍ فِتْنَةً *** فِيهَا يُبَاعُ الدِّيْنُ بَيْعَ سَمَاحِ
يُفْتى عَلَى ذَهَبِ المُعِزِّ وَسَيْفِهِ *** وَهَوى النُّفُوسِ وَحِقْدِهَا المِلحَاحِ[٢]

وهكذا يضغط الواقع على الكثيرين ممن يسعون للقيام بأمر الله؛ حيث يشعر هؤلاء أن كل من حولهم يخالفهم فيما هم عليه، بل وينابذهم على ذلك بكل ما يستطيع؛ فهم يسيرون في طريق موحشة، لا معين فيها ولا أنيس، والجميع حولهم يدعوهم ليسالموا أو يداهنوا، أو يقفوا موقفًا وسطًا ويلتقوا مع الجاهلية في منتصف الطريق، بدعاوى وشعارات معلومة مشهورة.

وتزداد الفتنة وتعظم البلية، عند صبغ هذه الدعاوى بصبغةٍ شرعية، وتخريجها تخريجًا فقهيًّا، يعتمد الوسطية وينبذ ويحارب التشدد؛ فتنهال الاتهامات من مختلف المستويات على من يريد القيام بأمر الله، متهمين إياه بالتطرف والغلو بل بالإرهاب، فضلًا عن الخارجية؛ ليجد العبد نفسه محاصرًا بدائرة محكمة من الاتهامات والإدانات، والتي لا ينقصها التدليل الشرعي، تصمُّ مسامعه صيحاتها، من كل حدب وصوب مناديةً عليه ببطلان ما هو عليه، ومروقه عن الطريق القويم، وحيدته عن الصراط المستقيم، وبعده عن الدين، ومخالفته للعالمين أجمعين، والهدف هو الضغط على العبد ليتجنب الانتساب للحق في خاصة نفسه، فضلًا عن دعوة الآخرين إليه، ومن ثم التنازل والتراجع والنكول والنكوص عن أمر الله، ومسايرة الواقع القائم، وقد جاء عن الإمام الفضيل بن عياض -رحمه الله- أنه قال: (كيف بك إذا بقيت إلى

[١] مجموع الفتاوي، (ج٣٥/ص١٩٠).
[٢] بيتان لقصيدة حسين سيد عفاني، كتاب وا محمداه إن شانئك هو الأبتر (ج٢/ص٢٩٨).

زمانٍ شاهدت فيه ناسًا لا يُفرِّقون بين الحقِ والباطل، ولا بين المؤمن والكافر، ولا بين الأمين والخائن، ولا بين الجاهل والعالم، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا؟)[١]؛ قال الإمام ابن بطة -معلقًا على قول الفضيل-: (فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فإنَّا قد بلغنا ذلك، وسمعناه، وعلمنا أكثره وشاهدناه، فلو أنَّ رجلًا ممَّن وهب الله له عقلًا صحيحًا، وبصرًا نافذًا، فأمعن نظره وردَّد فكره، وتأمَّل أمر الإسلام وأهله، وسلك بأهله الطَّريق الأقصد، والسَّبيل الأرشد: لتبيَّن له أن الأكثر والأعمَّ والأشهر من النَّاس قد نكصوا على أعقابهم، وارتدُّوا على أدبارهم، فحادوا عن المحجَّة، وانقلبوا عن صحيح الـحُجَّة، ولقد أضحى كثيرٌ من النَّاس يستحسنون ما كانوا يستقبحون، ويستحلُّون ما كانوا يحرِّمون، ويعرفون ما كانوا يُنكرون)[٢]، والجملة الأخيرة من كلام ابن بطة: هي إشارة جليّة إلى فتنة ضغط الواقع؛ حيث ينضغط الكثيرون بضغط الواقع، ومن خلال طوق الجاهلية المحكم والذي يحيط بالعبد من كل مكان إحاطة السوار بالمعصم؛ فيسعون وقد انكسرت قلوبهم وهُزمت نفوسهم وناحت كواهلهم، تحت مطارق هذا الضغط العنيف: لنفي تلك الاتهامات عن أنفسهم، بل والتبرؤ منها ومن أصحابها وإظهار أنهم أصحاب منهج مغاير، يقوم على الاعتدال والواقعية والوسطية، وينبذ التشدد والمثالية الخيالية، ويلتقي مع الواقع القائم، فلا يحاربه أو يسعى إلى الاستبدال به، وإنما هو الإصلاح الرقيق والتغيير السلمي، الذي ينطلق من هذا الواقع ويسايره، ويرجع إليه لا غير، وهم في سبيل ذلك يتكيفون في كل قالب، ويتطاوعون لكل ضاغط، ولهذا المنهج الانهزامي التلفيقي سلسلة أليمة من المفردات والمظاهر المتعددات، والتي يجمعها كلها كونها إفرازات ضغط الواقع الجاهلي، فمحاولة الالتقاء والانسجام مع هذا الواقع، ومسايرته وعدم الظهور بمظهر الخارج عليه: هو مصدر هذه السلسلة من المفردات ومرجعيتها، و إن كان ذلك على حساب تطويع

---

[١] رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (ج١/ص١٨٨).

[٢] الإبانة الكبري، (ج١/ص١٨٨).

الـمُحَكَّمات والقطعيات الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع لهذا الواقع، بل والتجاسر على ادعاء النسخ فيها، ومن ذلك ما قرره بعضهم في تجاسر وجرأة على دين الله، يحار فيها العقل السليم: من أن أحكام أهل الذمة قد نُسخت كليًّا وجزئيًّا، بما يعرف اليوم بـ(أحكام المواطنة)! ومهما قيل حول هذه السلسلة الأليمة من المفردات والمظاهر تبريرًا أو تفسيرًا؛ فليس لأصحابها من موقع في صفوف الطائفة المنصورة أبدًا.

ومن أخطر نتائج الوقوع في هذه الفتنة: هو استمراء المنكر واعتياده، حتى قد يزول إنكاره بالكلية من القلب؛ نتيجة هذه المسايرة المنهجية للواقع، والتي تؤدي إلى استمراء المنكر والرضا به، بل قد يستقر في القلب استحسانه والإنكار على من أنكره؛ إذ كلما انضغط العبد وتراجع للوراء خطوة بفعل ضغط الواقع: ازداد استعداده للانضغاط والتراجع خطوات، وما يزال به هذا النهج حتى يصبح الانضغاط للواقع، والتراجع والتنازل له خلقًا ودينًا للعبد، وتضعف لديه إرادة الثبات بصورة مستمرة حتى تتلاشى تمامًا، وتصير لديه القابلية التامة للتنازل والتراجع عن كل شيء وأي شيء بسهولة و يسر! قال سيد -رحمه الله-: (الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزءٍ منها ولو يسير [...]: لا يملك أن يقف عند ما سلّم به أول مرة؛ لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء)[1].

فصل: فتنة ضغط الواقع قد تجر للكفر

وقد تتعاظم فتنة ضغط الواقع، وتستفحل في نفوس البعض، حتى تكون سببًا في الوقوع في الكفر والشرك الصراح! وقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى أن هذه الفتنة كانت

[1] في ظلال القرآن، (ج٤/ص٢٢٤٥).

السبب الرئيس في وقوع الكثيرين في الكفر والشرك، رغم ما قام لديهم من العلم بل واليقين في صحة وصدق ما جاء به الأنبياء والرسل؛ قال تعالى حكاية عن قوم نوح -عليه السلام- أنهم قالوا ردًّا عليه: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٢٤]، وحكى الله تعالى عن قول هود قولهم له: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [الأعراف: ٧٠]، وقال تعالى عن قوم صالح: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [هود: ٦٢]؛ فنظائر هذه الآيات في القرآن كثيرة معلومة وكلها مصرحة أن العبد قد يخرج من الحق إلى الباطل؛ خضوعًا لضغط الواقع ومسايرة للناس ولما هم عليه، حيث للجموع والحشود الغفيرة والعادة المتأصلة والإرث المتداول المحفوظ: سطوة قوية وهيبة في نفوس الكثيرين، تدفعهم لمخالفة الحق، وموافقة الباطل والإذعان له.

وكأن حذيفة صاحب السر وخبير الفتن -رضي الله عنه- كان يشير إلى فتنة ضغط الواقع تلك؛ حين قال: (أخوفُ ما أخافُ على النَّاس اثنتان: أن يُؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلُّوا وهم لا يشعرون)[1].

فصل: غربة أهل الطائفة المنصورة

أما أهل الطائفة المنصورة؛ فهم يدفعون ضغط الواقع ولا ينضغطون له أو به؛ إذ عملهم هو في الأساس والمقام الأول: إخضاع الواقع لأمر الله، وأطره عليه أطرًا، وهم يقومون بذلك بفضل الله أولًا ثم بيقينهم وصبرهم ثانيًا؛ إذ فتنة ضغط الواقع هي فتنة الغربة بجوانبها المتعددة ومظاهرها المختلفة، والتي يعيشها أهل الطائفة المنصورة في سعيهم نحو إقامة أمر الله، وقد كان الحسن -رحمه الله- يقول: (صدق الله ورسوله؛ باليقين طُلبت الجنَّة، وباليقين هُرب من النَّار، وباليقين أُدِّيَت الفرائض، وباليقين صُبر

[1] رواه أبو نعيم في الحلية، (ج١/ص٢٧٨)، ومحمد بن وضاح في البدع (ص٧٦)، وغيرهم بألفاظ متقاربة.

على الحقِ، وفي معافاة الله خيرٌ كثيرٌ، قد والله رأيناهم يتقرَّبون في العافية، فإذا نزل البلاء تفارقوا)[١]، فأهل الطائفة المنصورة يصبرون على غربة الطريق ولا يوحشهم قلة السالكين، ولهم في ذلك الأسوة التامة بخير خلق الله وصفوتهم من الأنبياء والرسل – عليهم السلام–، عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ"[٢]، فقلة السائرين وغربة الطريق وتفرد السير: من نهج الأنبياء والمرسلين في القيام بأمر الله، وقال رسول الله ﷺ: "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"[٣]، فنص النبي ﷺ على أن الغربة هي أصل هذا الأمر، وأساسه وإليه يرجع، وقال الطرطوشي –رحمه الله–: (ومعنى هذا الحديث: أنه لما جاء الله بالإسلام، فكان الرجل إذا أسلم في قبيلته وحيّه غريبًا فيهم، مستخفيًا بإسلامه، قد جفاه الأهل والعشيرة، فهو بينهم ذليل حقير خائف، يتغصص بجرع الجفاء والأذى، ثم يعود غريبًا؛ لكثرة الأهواء المضلة، والمذاهب المختلفة، حتى يبقى أهل الحق غرباء في الناس، لقلتهم وخوفهم على أنفسهم)[٤]، وقال القرطبي –رحمه الله–: (إنَّ قرنه [ﷺ] إنَّما فُضِّل لأنَّهم كانوا غرباء في إيمانهم؛ لكثرة الكفَّار، وصبرهم على أذاهم، وتمسُّكهم بدينهم، وإنَّ أواخر هذه الأمَّة إذا أقاموا الدِّين وتمسَّكوا به، وصبروا على طاعة ربِّهم في حين ظهور الشَّرِّ والفسق والهَرَج والمعاصي والكبائر؛ كانوا عند ذلك أيضًا غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت، كما زكت أعمال أوائلهم، وممَّا يشهد لهذا قوله –عليه الصلاة والسَّلام–: "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ")[٥].

---

[١] رواه البيهقي في السنن الصغير، (ج١/ص١٥)، ورواه أحمد في الزهد (ص٢٢٨)، وابن أبي الدنيا في اليقين (ص٣٦) بألفاظ متقاربة.

[٢] متفق عليه.

[٣] رواه مسلم وأحمد وابن ماجه.

[٤] الحوادث والبدع، (ص٣٢).

[٥] الجامع لأحكام القرآن، (ج٣/ص٢٦٣).

وأعظم ما تكون غربة الإسلام وأهله القائمين به علمًا وعملًا، دعوة وجهادًا: إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ} [المائدة: ٥٤]، فهولاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد تكون الْغُرْبَةُ في بعض شرائعه، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة.؛ ففي كثيرٍ من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريبًا بينهم، لا يعرفه منهم إلَّا الواحد بعد الواحد،. ومع هذا: فطوبي لمن تمسَّك بتلك الشَّريعة كما أمر الله ورسوله؛ فإنَّ إظهاره، والأمر به، والإنكار على من خالفه هو بحسب القوة والأعوان)[1].

وقال شمس الحق آبادي -رحمه الله-: (فطوبى للغرباء من أُمَّتي، يُريد المنفردين عن أهل زمانهم)[2]، وقد وصف الشارع هؤلاء الغرباء بجملة من الأوصاف؛ منها: أنهم نزاع الناس، أو النزاع من القبائل، والنزاع جمع نزيع ونازع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته، والنزائع من الإبل الغِراب، قال الهروي -رحمه الله-: (أراد بذلك المهاجرين الَّذين هجروا أوطانهم إلى الله تعالى)[3]، وجاء في وصف الغرباء: أنهم الفرارون بدينهم، أو الذين يفرون بدينهم من الفتن، وأنهم أناسٌ صالحون قليل في أناس سوء كثير، ومن يعصيهم أكثر ممن يطيعهم، وأنهم الذين يُصلِحونَ إذا فسد الناس، وأنهم الذين يتمسكونَ بكتاب الله حين يترك ويعملون بالسنة حين تُطفى، وأنهم الذين يحيون ما أمات الناس من سنة النبي ﷺ، وهذه الأوصاف المختلفة من النبي ﷺ للغرباء، وإن كانت تظهر من جهة عظم الدور الذي يقوم به هؤلاء الغرباء في أزمنة الغربة في القيام بأمر الله والثبات عليه؛ فإنها من جهة أخرى تظهر عِظم غربة هؤلاء وشدّتها،

---

[1] مجموع الفتاوى، (ج١٨/ص٢٩٨).

[2] عون المعبود، (ج١١/ص٣٣٣).

[3] شرح النووي على مسلم، (ج٢/ص١٧٧).

وعظم صبرهم عليها، وقد نُقل عن سيد العباد بعد الصحابة (أويس القرني)، أنه قال: (إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، والنهي عن المنكر لم يدع لِلْمُؤْمِنِ صَدِيقًا، نَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَيَشْتُمُونَ أَعْرَاضَنَا، وَيَجِدُونَ على ذَلِكَ أَعْوَانًا مِنَ الْفَاسِقِينَ، حَتَّى وَاللَّهِ لَقَدْ رَمَوْنِي بِالْعَظَائِمِ، وَايْمُ اللَّهِ لَا أَدَعُ أَنْ أَقُومَ فِيهِمْ بِحَقِّهِ)[١].

(فمن هذا الباب يرجع الإسلام غريبًا كما بدأ؛ لأن المؤالف فيه -على وصفه الأوَّل- قليلٌ، فصار المخالف هو الكثير، فاندرست رسوم السُّنَّة حتى مدَّت البدع أعناقها، فأُشكل مرماها على الجمهور، فظهر مصداق الحديث الصحيح)[٢]، كما بيّن ذلك الشاطبي -رحمه الله-.

فقد ذكر الصادق المصدوق ﷺ أن غربة القائمين بأمر الله الثابتين عليه: قد تشتد وتستحكم إلى أن يصبح حال هؤلاء الغرباء كحال القابض على الجمر؛ فعن أبي ثعلبة الخشني أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ"، قالوا: يا رسول الله؛ أجر خمسين منهم؟ فقال ﷺ: "أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ"[٣]، وفي تشبيهه ﷺ المتمسك بدينه الصابر عليه، بالقابض على الجمر، دلالات هامة؛ منها:

أولًا: شدة غربة الدين، وشدة غربة أهله القائمين به.

ثانيًا: شدة وعظم وهول ضغط الواقع على هؤلاء القائمين بأمر الله؛ لصرفهم وفتنتهم عنه.

ثالثًا: عظيم صبر هؤلاء القائمين بأمر الله، وعظيم ثباتهم في هذه الغربة الحالكة.

---

[١] طبقات ابن سعد (ج٦/ ص١٦١)، حلية الأولياء لأبي نعيم (ج٢/ ص٧٩)، وصفة الصفوة لابن الجوزي (ج٣/ص٤٣).
[٢] الاعتصام، (ج١/ص٣٢).
[٣] رواه التِّرْمِذِيُّ وابن ماجه وأبو داود واللفظ له، (قال: التِّرْمِذِيُّ: حسن غريب).

رابعًا: أن اشتداد الغربة في الدين وأهله القائمين به إلى الدرجة التي تجعل العبد كالقابض على الجمر: ليس مبررًا للنكول والنكوص عن أمر الله والحيدة عنه، والتفريط فيه، وأنّه ليس هناك غير الاستمرار في القبض على الجمر، ولما قيل للإمام أحمد أيّام المحنة: يا أبا عبد الله؛ أوَ لا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟ قال: (كلا؛ إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلال، وقلوبنا بعدُ لازمةٌ للحق)[١].

خامسًا: أن ضغط الواقع الشديد من هذه الغربة المستحكمة: لا يدفع بغير الصبر؛ لا بالأخذ في بُنيّات الطريق والعدول عن الجادّة؛ ولذلك كلّه نسب النبي ﷺ هذه الأيام للصبر، وإنما نُسبت كذلك لأن العبد بدون الصبر، بل والصبر العظيم الذي يقارع صبر القابض على الجمر: هيهات هيهات أن يسلَمَ له دينه، مع هذه المحن والأهوال التي تحيط به من كل جانب، وقد جاء عن حذيفة -رضي الله عنه- أنَّه أخذ حجرين، فوضع أحدهما على الآخر، ثمَّ قال لأصحابه: (هل ترون ما بين هذين الحجرين من النُّور؟)، قالوا: يا أبا عبد الله؛ ما نرى بينهما من النُّور إلا قليلًا، قال: (والَّذي نفسي بيده؛ لتظهرنَّ البدع حتى لا يُرى من الحقِّ، إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النُّور، والله لتفَشُونَّ البدع حتَّى إذا تُرك منها شيءٌ، قالوا: تُرِكت السُّنَّة)[٢]! وقال سهل بن عبد الله: (عليكم بالاقتداء بالأثر والسُّنَّة، فإنِّي أخاف أنَّه سيأتي عن قليلٍ زمانٌ؛ إذا ذكر إنسانٌ النَّبيَّ ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله: ذمّوه ونفروا عنه، وتبرؤوا منه، وأذلُّوه وأهانوه)[٣]! وما أعجب كلمة هشام بن حسَّان[٤] حين

---

[١] مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي، (ص٤٢١).

[٢] رواه محمد بن وضاح في البدع والنهي عنها (ص١١٤).

[٣] الجامع لأحكام القرآن، (ج١٠/ص١١٩).

[٤] ذكره الشاطبي عن ابن وهب، ظنه الزرقاوي من كلام هشام لترابط النصين في الاعتصام، وما نقله الشاطبي أيضًا خطأ، والصواب أنه لحذيفة -رضي الله عنه- كما رواه ابن أبي شيبة في المصنف.

قال: (ليأتينَّ على النَّاس زمانٌ يشتبِهُ فيه الحق والباطل، فإذا كان ذلك: لم ينفع فيه دعاءٌ إلا كدُعاء الغرِق)[١]!

قال ابن القيم: (فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه، وفقهًا في سنة رسوله وفهمًا في كتابه، وأراه ما النَّاس فيه من الأهواء والبدع والضَّلالات، وتنكُّبِهم عن الصِّراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فإذا أراد أن يسلك هذا الصِّراط: فليوطِّن نفسَه على قدح الجُهَّال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير النَّاس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفّار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ، فأمّا إن دعاهم إلى ذلك، وقدَحَ فيما هم عليه: فهناك تقومُ قيامتُهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عيه بخيل كبيرهم ورَجِلِه)[٢]!
ومن ثم؛ فمن رغب أن يكون من أهل الطائفة المنصورة، وسط هذه الغربة الحالكة بحيث يكون كما قال ابن القيم -رحمه الله-، رأسًا في ذلك: فيحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا، حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيّله، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه، والطرق القواطع عنه، مقدام الهمّة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم، ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائلٍ مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزّه المعارضات، شعاره الصبر وراحته التعب.

فصل: استعلاء الإيمان

ومما يدفع به أهلُ الطائفة المنصورة فتنة ضغط الواقع أو فتنة الغربة: استعلاء الإيمان؛ حيث تمتلئ صدورهم ونفوسهم بالعزة التي جعلها الله لأهل دينه دون غيرهم؛ قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ

---

[١] رواه ابن أبي شيبة، والهروي في ذم الكلام (ج٤/ص٢٨٥)، ونعيم بن حماد في الفتن (ج١/ص١٨٨) عن حذيفة -رضي الله عنه-.
[٢] مدارج السالكين، (ج٤/ص٧٦).

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس: ٦٥]، فالعزة كُلها لله وحده، وليس لمن حادّ الله ورسوله ودينه فيها أدنى نصيب، وإن ملكوا أسباب السماء والأرض، وقد قال تعالى في صفة أوليائه القائمين بدينه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤]، فهم ينضحون بالعزة في وجه أعداء الدين وإن كانت لهم الغلَبة، وإن كان لهم السلطان المادي؛ إذ العزة بالإسلام لا بغيره، وفي مقابل وصف أهل الإيمان بالعزة، قال تعالى في حق المحادّين له ولرسوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} [المجادلة: ٢٠].

وقد قال رسول الله ﷺ: "الإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى"[١]، وللحديث قصة ذات دلالة هامّة؛ فعن عائذ بن عمرو أنَّه جاء يوم الفتح مع أبي سفيان بن حربٍ، ورسول الله ﷺ حوله أصحابه، فقالوا: هذا أبو سفيان، وعائذ بن عمرٍو، فقال رسول الله ﷺ: "هَذَا عَائِذُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سُفْيَانَ، الْإِسْلَامُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ، الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى"[٢]، فمجرّد تقديم اسم الكافر على اسم المسلم منافٍ لعلو الإسلام، بل مجرد العلو المكاني لا ينبغي أن يكون لغير أهل الإسلام، وإن كانت الدولة والجولة لأعدائهم، ففي غزوة أحد وبعد أن دارت الدائرة على المسلمين، علت عالية من قريش الجبل، فقال رسول الله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا"[٣]، فقاتل عمر بن الخطاب ورهطٌ معه من المهاجرين حتى أهبطوهم عن الجبل.

---

[١] رواه الدارقطني والبيهقي وغيرهما موصولًا مرفوعًا عن عائذ بن عمرو المزني، قال ابن حجر: سنده حسن. وضعفه غيره لجهالة عبد الله بن الحشرج. ورواه ابن حزم في المحلى والبخاري معلقًا موقوفًا عن ابن عباس، قال ابن حجر: سنده صحيح ولم يعرف من خرجه.

[٢] سبق تخريجه.

[٣] رواه ابن إسحاق، سيرة ابن هشام (ج٢/ص٨٦).

ومن اللطائف ما جاء في تفسير قوله تعالى: {فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ} [آل عمران: ١٥٣]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (الغمُّ الأوَّل: بسبب الهزيمة، وحين قيل: قُتلَ محمَّدٌ ﷺ، والثَّاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النَّبيُّ ﷺ: "اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَعْلُونا"[1])[2]، فمجرد علو الكفار المكاني على المسلمين، رغم كون الهزيمة من نصيبهم، والدائرة عليهم مما يصيبهم بالهم والغم، فالمسلم الحق تمتلئ نفسه وتفيض بكل معاني العلو المطلق: بما خصه الله تعالى وشرّفه به دون سائر خلقه، وإن كان في أبعد حالاته عن النصر والتمكين، وهذا ما ترسخ في نفوس الصحابة رضي الله عنهم؛ فعن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الْخَطَّابِ إلى الشَّام ومعنا أبو عبيدة بن الجرَّاح، فأتوا على مخاضةٍ وعمر على ناقةٍ له، فنزل عنها، وخلع خفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: (يا أمير المؤمنين؛ أنت تفعل هذا؟ تخلع خُفَّيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟ ما يسُرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك)، فقال عمر -رضي الله عنه-: (أوَّه، لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة، جعلته نكالًا لأمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ؛ إنَّا كنَّا أذلَّ قومٍ، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّة بغير ما أعزَّنا الله به أذلَّنا الله)[3].

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين، عند الحديث عمّا نزل بهم من البلاء، وما جرى لهم من إدالة عدوهم منهم، فقال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٣٩-١٤٢]، فنهى الله عباده

---

[1] رواه أحمد والحاكم، (إسناده حسن، وصححه الحاكم والذهبي).

[2] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج٢/ص١٤٣).

[3] رواه الحاكم. قال الحاكم: (صحيح على شرط الشيخين).

المؤمنين عن الوهن والحزن، رغم ما نزل بهم من البلاء والمحنة، ورغم أن الدائرة كانت عليهم؛ وذلك لكونهم هم أهل العلو والعزة ما كانوا متمسكين بدينهم وإيمانهم، فأساس العلو العزة هذا الدين الذي أكرمهم الله به، ولا عبرة بعد ذلك بضعفهم المادي، وكون الصولة والجولة لأعدائهم عليهم، قال السعدي -رحمه الله-: (يقول تعالى مشجعًا لعباده المؤمنين، ومقويًا لعزائمهم ومنهضًا لهممهم: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا}؛ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى؛ فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان: زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن، وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال تعالى: {وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ})[1].

فمن مقتضيات ولوازم كون أهل الإيمان هم الأعلون: عدم الوهن والحزن والانكسار في طلب الأعداء ومواجهتهم، وإن اشتد ضغط الواقع على المؤمنين بكون الصولة والجولة والدولة لأعدائهم، فكيف بالتنازل والتراجع استجابةً لهذا الضغط؟ وذلك أن ترسخ هذه الحقيقة في قلب ونفس العبد المؤمن، يورثه ثباتًا عظيمًا في مواجهة ضغط الواقع وإن اشتد وعظم؛ حيث يدرك المؤمن أنه الأعز والأعلى، من كل ما حوله، رغم ضعفه المادي وتجرده من أسباب القوة المادية، كما يدرك أن ما يلوح للواقع الجاهلي من مظاهر العزة والعلو، والتي لها سطوة وهيبة على كثير من النفوس: إنما هي مظاهر كاذبة خادعة، وإنما هذا العلو والعزة وهم وسراب لا حقيقة له.

[1] تيسير الكريم الرحمن، (ص١٤٩).

وختامًا نقول: إن من يعيش الواقع من خلال كتاب أو مطالعة لوسائل إعلام أو غيرها، فلا يمكن أن يحكم على الواقع الذي يعيشه المجاهدون بطريقةٍ صحيحة؛ فلا بد أن يعيش بينهم ويعرف همومهم وأفراحهم وأحزانهم، وهذا هو شأن النبي ﷺ؛ فقد كان الأعرابي يدخل إلى المجلس فيسأل: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟[١] لأنَّه ﷺ كانت حياته بين أصحابه، ولـمّا فزع أهل المدينة ليلةً، انطلقوا قِبلَ الصَّوت، فتلقَّاهم النَّبيُّ ﷺ، وقد سبقهم إلى الصَّوت، وهو على فرسٍ لأبي طلحة، ما عليه سرجٌ، وفي عنقه السَّيف، وهو يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ لَنْ تُرَاعُوا"[٢]، فالذي يعايش الواقع عن بُعد، ولا يعيش تفاصيله، ولا يواجه نوازله وابتلاءاته: فلا شك أنه سيبقى بمنأىً عن سهام أهل الكفر وانتقاداتهم، حسن السيرة نقي الصورة، وأما المجاهدون فإنهم يخوضون مع أعدائهم غمار الحروب، فطريقهم واضح المعالم والأهداف، وهم في سيرهم إلى ربهم يوالون فيه ويعادون فيه، ويحبون فيه ويُبغضون فيه، وحاديهم: اللهم لك العتبى حتى ترضى، وهم في سيرهم غير مبرئين عن الأخطاء والمعائب؛ فإذا أصابتهم قروحٌ وابتلاءات أو هزائم وجراحات: سلقهم القاعدون بألسنةٍ حداد، ونظّروا سبب هزيمتهم بما يرونه على طريقتهم! فليتهم كانوا في أوائل الصفوف، وخاضوا معهم غمار الحروب، وعاشوا الجهاد بحلوه ومرّه، وما يتعرض له المجاهدون من ضغوطات تنوء بحملها الجبال؛ إذًا فلو نَصَحوا ونظّروا لقبل منهم.

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر.

اللهم ارفع الضيم والذل عن هذه الأمة، وارفع راية الجهاد في كل واد وباد.

---

[١] روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم بألفاظ متقاربة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: (نُهِينَا فِي الْقُرْآنِ أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ فَبَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ قَالَ لَنَا: **أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟** -وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا- فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ).

[٢] رواه الستة، واللفظ لابن ماجه.

الباب الرابعُ: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}

فإن أي جماعة تنشد تغيير واقع الأمة وذلّها، وإعادة مجدها السالف وعزها؛ لا بد أن تمتلك في نفسها مجموعة من العوامل التي تؤهلها وتمكّنها من تحقيق بغيتها والوصول إلى غايتها، وأُسُّ هذه العوامل وأصلها أن يكون لها خطاب دعوي ديني واضح المعالم، ثابت الأركان، يقوم على أسس محكمة متينة تستمد منه الجماعة أسباب حياتها ومقومات استمرارها، فإذا ما ترافق هذا الخطاب مع عمل جهادي منظّم التزم أفراده مقتضيات هذا الخطاب؛ تأتّى للجماعة الحصول على ما تطلبه وتحقيق ما تنشده.

فصل: فتنة المصطلحات

وإن المتتبع لسير العديد من الحركات الإسلامية المعاصرة: ليتبيّن له بجلاء أن خطابها الديني مشوّه في معالمه، غامض في مصطلحاته، فضفاض في عباراته وشعاراته؛ وما ذاك إلا لابتعادهم عن استخدام المصطلح الشرعي في خطابهم واستبدالهم به مصطلحات عصرية حادثة، يقطر منها منهج الانهزامية ويرشح منها سبيل التبعية الفكرية؛ فبتنا نسمع لفظ المقاومة وصراع الحضارات بدل الجهاد في سبيل الله، ولفظ المدنيين والأبرياء بدل الكفار والمحاربين، ولفظ الطرف الآخر بدل اليهود والنصارى، إلى غير ذلك من الألفاظ التي يطول ذكرها، والتي هي في حقيقتها سبيل إلى تفريغ المصطلحات الشرعية من مضمونها ودلالاتها التي أرادها الشارع الحكيم من وضعها.

إن حدود الشرع مبنية على فهم هذه المصطلحات، وإن الخلل في فهم هذه المصطلحات التي خاطبنا الشارع بها يؤدي إلى إفساد فهم المخاطبين بهذا الدين،

ومن ثمّ إفساد عبادتهم لله رب العالمين، ويتضح ذلك بتأمل مصطلح الإيمان، فقد رتب الله سبحانه وتعالى على الإتيان به أمورًا وعلّق عليه وعودًا، فقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: ٣٨]، وقال سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ} [النور: ٥٥]، فالخلل والجهل في فهم معنى الإيمان عن شرع الله قد يؤدي بالمرء إلى تكذيب القرآن أو الشك في موعوده حيث لم يتحقق هذا الوعد؛ ولذا كان الخطاب الدعوي للمجاهدين أهل الطائفة المنصورة، يقوم على المصطلح الشرعي في مخاطبة المدعوّين لا غيره ما أمكن ذلك؛ وذلك أن المصطلح الشرعي هو الأقوم والأهدى لما وضع له، أما غيره من المصطلحات المخترعة المولّدة، فلا يؤمن معها الزلل والخلل لكونها من نِتاج العقول غير المعصومة، فضلًا عما فيها من إعراض عن هدي الكتاب والسنة وما ورد عن سلف هذه الأمة، فكان التمسك بهذه المصطلحات المبتدعة والشغف بها والتنافس فيها ليس له من مبرر غير اتباع الهوى، مع التسليم بأنه استبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير، فأهل الطائفة المنصورة يعتصمون بالكتاب والسنة لفظًا ومعنى، فكما يعتصمون بمعاني الكتاب والسنة خوف الزيغ والضلال، كذلك يعتصمون بألفاظهما خوف الزيغ والضلال؛ إذ الزيغ والضلال كما يعرض من جهة المعاني: فإنه يعرض كذلك من جهة الألفاظ والمباني، بل الألفاظ بوابة المعاني ومدخلها وقوالبها التي تصب فيها، فما لم تكن تلك الألفاظ محكمة للحق جامعة وللباطل مانعة، فستكون مدخلا للزيغ والضلال؛ إذ الألفاظ للمعاني أزمَّة، وعليها أدلة، وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة؛ ولذا فأهل الطائفة المنصورة يقصدون الألفاظ الشرعية ليضبطوا بها تلك المعاني فلا يشذّ عنهم منها شيء.

قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، فنص تعالى على أنه قد أكمل لنا الدين وأحكمه،

وهذا الكمال شامل للمعاني والمباني، فالإعراض عن استعمال المصطلح الشرعي فيه انتقاص لهذه الشريعة الغراء، ويقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]، وهذه الهداية هداية مطلقة، فهو يهدي للتي هي أقوم معنًى ومبنًى، وذلك في كل زمن من الأزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد نفى سبحانه وتعالى العِوج عن كتابه فقال سبحانه: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: ٢٧-٢٨]، قال ابن كثير: (وقوله جلَّ وعلا: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}؛ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}؛ أي يحذورن ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد).

فكان الخطاب الدعوي المبني على المصطلح الشرعي: خطابًا دعويًّا غير ذي عوج؛ وبالمقابل يكون الخطاب الدعوي المبني على غير المصطلح الشرعي: خطابًا دعويًّا ذا عوج، وإن ظن أصحابه أنهم قد اعتلوا ذروة سنام الفصاحة وامتلكوا ناصية البيان.

فصل: مصطلحات الطائفة المنصورة

إن أهل الطائفة المنصورة يدركون بأن الشرع في استخدامه لمصطلحات دون غيرها: قد أعطى هذه المصطلحات معاني ودلالات خاصة، وما ذاك إلا رغبة في ربط هذه المعاني والدلالات بتلك المصطلحات، بحيث إذا تم التعبير عن هذه المعاني والدلالات بغير تلك المصطلحات واستبدال مصطلحات محدثة بها: لم يفد ذلك قطعًا أيًّا مما أراده الشرع من معاني ودلالات نفيًا وإثباتًا، ومن اليقين عند أهل الطائفة المنصورة أن ربط الشرع لمعنى من المعاني بمصطلح ما: يعني أن هذا المصطلح

هو وحده الأجدر والأصلح في التعبير عن هذا المعنى، مهما تبدلت الأحوال وتغيرت الأزمان، إذ هذا الدين تنزيل رب العالمين.

قال ابن القيم -رحمه الله-: (ينبغي للمفتي أن يفتي بلفظ النصِّ مهما أمكنه؛ فإنه يتضمَّن الحكم والدليل مع البيان التام. [...] وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرَّون ذلك غاية التحرِّي، حتَّى خلفت من بعدهم خلوفٌ رغبوا عن النصوص، واشتقُّوا لهم ألفاظًا غير ألفاظ النصوص؛ فأوجب ذلك هجرَ النصوص، ومعلومٌ أن تلك الألفاظ لا تفي بما تفي به النصوص من الحكم والدليل وحسن البيان، فتولَّد من هجران ألفاظ النصوص، والإقبال على الألفاظ الحادثة، وتعليق الأحكام بها: على الأمة من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فألفاظ النصوص عصمة وحجة بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب، ولما كانت هي عصمة [عهدة] الصحابة وأصولهم التي إليها يرجعون: كانت علومهم أصحَّ من علوم من بعدهم، وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم، ثم التابعون بالنسبة إلى من بعدهم كذلك [...]. ولما استحكم هجرانُ النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع: كانت علومُهم في مسائلهم وأدلَّتهم في غاية الفساد والاضطراب والتناقض، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سُئِلوا عن مسألة يقولون: قال الله كذا، قال رسول الله ﷺ كذا، وفعل رسول الله كذا، ولا يعدِلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلًا قطُّ، فمن تأمَّل أجوبتهم وجدها شفاءً لما في الصدور)[1]، وكلام ابن القيم هذا، وإن كان نصًّا في حق المفتي؛ فإنه شامل كذلك للداعية، بجامع التبليغ عن الله لدينه وشرعه، مع ما في كلامه -رحمه الله- من عموم ضرر هجر ألفاظ النصوص، وقال ابن القيم: (فلما طال العهد وبعُد الناس من نور النبوة صار هذا عيبًا عند المتأخرين: أن يذكروا في أصول دينهم وفروعه: قال الله، وقال رسول الله)[2].

[1] أعلام الموقعين، (ج٥/ص٣٠-٣١).

[2] المرجع السابق.

وقد قال الغزالي وهو يتحدث عن بيان ما بدل من ألفاظ العلوم قال: (اعلمْ: أنَّ منشأ التباسِ العلومِ المذمومة بالعلومِ الشرعيَّةِ تحريفُ الأسامي المحمودةِ وتبديلُها، ونقلُها بالأغراضِ الفاسدةِ إلى معانٍ غيرِ ما أرادَهُ السلفُ الصالح والقرنُ الأوَّلُ)[1]، وقال ابن حزم في حديثه عن الألفاظ الدائرة بين أهل النظر: (هذا باب خلَّط فيه كثيرٌ ممن تكلم في معانيه، وشبك بين المعاني وأوقع الأسماء على غير مسمياتها، ومزج بين الحق والباطل؛ فكثر لذلك الشغب والالتباس، وعظمت المضرة، وخفيت الحقائق)[2]، وهذه الصورة التي أشار إليها كل من الغزالي وابن حزم -رحمهما الله تعالى-: لا شك أنها من أخطر صور تحريف حقائق الدين وتغيير مفاهيمه؛ حيث يتم تجريد المصطلح الشرعي من معناه الحق، وإسقاطه على معنى آخر غير ما وضع له، ثم ترويجه بهذا الآخر الجديد بغية التحريف والتبديل، فإذا انضاف إلى ذلك الاستعاضة بالكلية عن المصطلح الشرعي بمصطلح آخر محدث: تأكدت الخسارة؛ لانقطاع الصلة بالأصل الذي من خلاله وحده، يكون تصحيح المعنى أو تقويم اللفظ، وقد يكون هذا المصطلح الجديد مما زخرفه أصحابه وحسّنوه، ببهرج القول وزخرفه، تمويهًا وتمريرًا لما في باطنه من باطل، فينخدع به أسرى الظاهر ممن يعميهم الشكل عن المضمون فيروج عليهم باطله فيهلكون.

قال ابن القيم -رحمه الله-: (بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلَّها: وجدها قد أخرجها أصحابها في قوالب مستحسنة، وكسَوها ألفاظًا يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها)[3]، (فلا إله إلا الله، كم هاهنا من مزلَّة أقدام ومحلِّ أوهام! وما دعا مُحِقٌّ إلى حقٍّ إلا أخرجه الشيطان على لسان أخيه ووليِّه من الإنس في قالبٍ تنفِر عنه خفافيشُ البصائر وضعفاءُ العقول وهم أكثر الناس، وما حذَّر أحد من باطلٍ: إلا

[1] إحياء علوم الدين، (ج١/ص١٢٠).
[2] الإحكام في أصول الأحكام، (ج١/ص٣٥).
[3] أعلام الموقعين، (ج٥/ص١٢٦).

أخرجه الشيطان على لسان وليّه من الإنس في قالبٍ مزيَّف مزخرَف يستخِفُّ به عقولَ ذلك الضرب من الناس، فيستجيبون له، وأكثر الناس نظرهم قاصر على الصور، لا يتجاوزونها إلى الحقائق، فهم محبوسون في سجن الألفاظ، مقيَّدون بقيود العبارات، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١١٢-١١٣])[١].

ولعل خير مثال لما ذكره هؤلاء الأئمة: ما يروّج له في هذه الأزمان؛ وهو ما اصطلح عليه الناس من تسمية الكفار والمشركين غير العسكريين بالمدنيين، وعليه فلا يجوز عندهم استهدافهم بالقتل أو التعرض لهم، وهذا المصطلح وما ترتب عليه من أحكام باطل منقطع النسبة والنسب لشرع الله ودينه لفظا ومعنى؛ لأن ميزان التفريق في الإسلام لا يقوم بين مدني وعسكري، وإنما يقوم على أساس التفريق بين المسلم والكافر، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: ٢]، فالمسلم معصوم الدم أيًّا كان عمله ومحله، والكافر مباح الدم أيًّا كان عمله ومحله، ما لم يكن له عهد أو أمان، وقد قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩]، قال ابن العربي: (سَبَبَ الْقَتْلِ هُوَ الْكُفْرِ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ تعَالَى قَالَ: {حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [الأنفال: ٣٩]؛ فَجَعَلَ الْغَايَةَ عَدَمَ الْكُفْرِ نَصًّا، وَأَبَانَ فِيهَا أَنَّ سَبَبَ الْقَتْلِ الْمُبِيحَ لِلْقِتَالِ [هو] الْكُفْرُ)[٢]، قال ابن كثير -رحمه الله-: (وقد حكى ابن جريرٍ الإجماع على أنَّ المشرك يجوز قتله، إذا لم يكن له أمانٌ، وإن أمَّ

---

[١] المرجع السابق، (ص٦٥).

[٢] أحكام القرآن، (ج١/ص١٥٥).

البيت الحرام أو بيت المقدس)[١]، قال الشوكاني: (فالمشرك سواء حارب أو لم يحارب، مباح الدم ما دام مشركًا)[٢].

فكل أهل الأرض مع الإسلام ثلاثة أقسام لا رابع لها؛

القسم الأول: أهل الإسلام المنتسبون له.

والقسم الثاني: المسالمون للإسلام، المهادنون لأهله بذمة أو هدنة أو أمان.

وهذان القسمان دماؤهم وأموالهم معصومة، إلا أن يأتي أحدهم بما يباح به دمه أو ماله بحكم الشرع.

والقسم الثالث: وهم كل ما عدا ذلك من أهل الأرض؛ فكل كافر على وجه الأرض لم يسالم الإسلام، ولم يهادن أهله بذمة أو هدنة أو أمان: فهو كافر محارب لا عصمة له مطلقًا، ما لم يكن ممن نهي عن قتله ابتداءً كالصبيان والنساء، فالكفر وإباحة الدم والمال قرينان لا ينفكان في دين الله وشرعه، ولا يعصم من ذلك إلا من عصمه الإسلام بذمة أو هدنة أو أمان.

فصل: مصطلح الجهاد

وكذلك مفهوم الجهاد في الإسلام، الذي يتعرض لأعتى هجمات التشويه، من قبل أعداء الدين من مستشرقين ومستغربين وعلمانيين وغيرهم، بدعوى أنه مفهوم يتنافى مع مبادئ حقوق الإنسان التي شرعوها، وأنه إنما يعني: سفك الدماء ونشر القتل وإحداث الدمار، وقد تأثر بهذه الحملة التغريبية كثيرٌ من المسلمين حتى باتوا يستحيون من ذكر هذا المصطلح العظيم؛ خشية اتهامهم بالإرهاب! واستبدلوا به

---

[١] تفسير القرآن العظيم، (ج٢/ص١١). انظر: جامع البيان، الطبري، (ج٨/ص٣٩-٤٠).
[٢] السيل الجرار، (ص٨٦٧).

مصطلحات فضفاضة لا تؤدي ما أراده الشارع من هذه الكلمة العظيمة، استبدلوا به لفظ المقاومة وحق الدفاع عن النفس، وغير ذلك من الألفاظ التي شرعتها وأقرتها دساتير الأمم المتحدة وغيرها؛ مجاراةً منهم للتيار الجارف من العلمانيين والليبراليين الجدد رموزًا وكتّابًا وأدباء وصحفيين وباحثين وغيرهم، مما رجع سلبًا على الجهاد وأهله؛ حيث أدى ذلك إلى إدخال جماعات وأحزابٍ وفصائل لا تمت إلى الجهاد بصلة في مدلول هذا المصطلح العظيم؛ كحزب الله الرافضي وحركة فتح العلمانية وغيرهما، بل إنه يدخل في هذه الألفاظ من ليس من هذه الملة الغراء؛ كالجيش الإيرلندي، والحركة الشعبية الصليبية، والجبهة الشعبية الشيوعية وغيرها؛ وذلك بجامع أن كل من يدفع عن بلاده العدو الصائل يسمى مقاومًا، وكل من يقاتل محتلًّا يسمى مقاومًا، أما لفظ الجهاد ومصطلحه فهو أعمق وأوضح، وله مدلولاته وأبعاده العظيمة في نفوس أبناء الأمة؛ فعندما يطلق لفظ الجهاد يخرج منه كل من لم يقاتل في سبيل الله، سواء قاتل لعصبية أو قومية أو وطنية أو لمال أو منصب أو جاه أو أرض أو غيرها، وإن صُبغ ذلك ببعض الشعارات الإسلامية زورًا وبهتانًا، فإن قيل: يا فلان؛ لقد حجرت واسعًا، قلت: لعمر الله ليس كذلك، بل هو دين الله وشرعه، ولكن أنتم ممن ميع دين الله وجعله كثوب السابري، روى البخاري عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرَّجلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قال ﷺ: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[١].

ومثل هذا المصطلح ما فتن به كثير من رجالات الدعوة اليوم، وظنّوه طريقًا للتمكين لدين الله وشرعه، ورموا كل من لا يوافقهم عليه بكل نقيصة، وهو ما يعرف اليوم بعلم السياسة، المأخوذ عن كفرة الغرب والشرق، وفتنته اليوم كفتنة علم الكلام،

[١] متفق عليه، واللفظ للبخاري.

يوم أن ظهر للصد عن دين الله الحق، والإعراض عن هدي الكتاب والسنة، وكلاهما مما جاءنا من كفرة الغرب أساسًا مع فسادهما في أنفسهما، قال ابن القيم: (وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة: كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى نقل وعقل، وكلٌّ ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل؛ كلٌّ ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد؛ فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل ضدُّها ومنافيها، وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد؛ وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كلِّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يُحْوِج أمته إلى أحد بعده)[١]، وقال طاش كبري زاده في مفتاح السعادة: (وأما الذين يقولون: لا بد للشرع من انضمام السياسة؛ فهذا خطأ الجهلة والعوام؛ إذ الشرع لا يحتاج إلى غيره، ومضمون قولهم هذا: أن الشرع لم يرد بما يكفي في السياسة، فاحتجنا إلى تتمة من آرائنا [...] وكيف يحتاج الشرع إلى السياسة؟ والأنبياء تكمل بهم أمور الدارين، وما يصلح به البشر كليًّا علميًّا وعمليًّا وذوقيًّا وكشفيًّا وشهودًا، سيما ولا أكمل ولا أفضل مما نطق به خير البشر، وأشار إليه سيد الأنبياء، حتى لو اجتمع عقول العقلاء، وفهوم الحكماء والأصفياء: لم يقدروا المزيد عليها ولو بجزء من ألف ألف جزء من ذرة صغيرة)[٢].

وإنما أعرض من أعرض عن الكتاب والسنة هنا فتنة بهذه الجهالات أولًا، ثم جهلًا بالكتاب والسنة وما فيهما من خير وهدى ورشاد ثانيًا، ومن جهل شيئا عاداه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فلا يعدلُ أحدٌ عن الطُّرق الشَّرعيَّة إلى البدعيَّة إلا لجهل، أو عجزٍ، أو غرضٍ فاسدٍ)[٣].

---

[١] أعلام الموقعين، (ج٥/ص٤١١-٤١٢).

[٢] (ج١/ص٣٨٢).

[٣] مجموع الفتاوى، (ج١١/ص٦٢٥).

ولا والله ماكان المسلمون في حاجة لما يسوسون به دنياهم بما يحقق لهم خير الدين والدُّنيا بشيء خارج عن الكتاب والسنة، وهم من أقام أعظم مملكة عرفها تاريخ البشر قاطبة، سياسة ونظامًا وحكمًا وعدلًا، وكيف للمسلمين أن يستبدلوا بالكتاب والسنة غيرهما، وهما ما أنزلا أصلًا إلا لسياسة الدُّنيا بشرع الله المطهر؟! وقد قيل: (جميع العلم في القرآن، لكن تقاصر عنه أفهام الرجال)[1]، وقد جاء عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: (من أراد العلم فليقرأ القرآن؛ فإن فيه علم الأوّلين والآخرين)[2].

وقد أحسن القائل:

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ *** إِلَّا الْحَدِيثَ وَعِلْمَ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ
الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا *** وَمَا سِوَى ذَاكَ وِسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ[3]

قال شيخ الإسلام: (العلماء إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بعث الله بها رسوله ﷺ وهي سنته: لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس، ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق، بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة؛ حيث يقول عز وجل: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣]، ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة، التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين، ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يتمّون به فروع الدين)[4].

[1] منسوب لابن علي وعباس -رضي الله عنهما- دون سند، ومنهم من ذكره كبيت شعري وآخرون غير ذلك.
[2] رواه ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد (ص١٢٩) باختلاف يسير (إسناده صحيح).
[3] بيتين للشافعي، ديوان الشافعي (ص١١٣).
[4] اقتضاء الصراط المستقيم، (ج٢/ص١٠٥).

وقال -رحمه الله-: (المقصود أن يُعرف أنَّ الصَّحابة خير القرون وأفضل الخلق بعد الأنبياء، فما ظهر فيمن بعدهم ممَّا يظنُّ أنَّها فضيلةٌ للمتأخِّرين ولم تكن فيهم فإنَّها من الشَّيطان، وهي نقيصةٌ لا فضيلةٌ، سواءٌ كانت من جنس العلوم أو من جنس العبادات، أو من جنس الخوارق والآيات أو من جنس السِّياسة والـمُلك، بل خير النَّاس بعدهم أتبعهم لهم)[١].

فصل: المصطلحات الموهمة لمعنى باطل

بل إن القرآن الكريم قرر لنا قاعدة هامة: وهي عدم جواز استخدام المصطلح الذي قد يوهم معنى باطلًا، وإن كان هذا المعنى الباطل غير مرادف لهذا المصطلح أصلًا، بل ولم يخطر ببال المتكلم؛ فكيف بما هو فوق ذلك من المصطلحات المتضمنة للمعاني الباطلة في أصل وضعها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٠٤]، قال السعدي -رحمه الله-: (كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: {رَاعِنَا}، أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحًا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدًا، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدًّا لهذا الباب)[٢]، ونحو هذا قوله ﷺ: "لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ لِلْعِنَبِ الْكَرْمُ؛ فَإِنَّ الْكَرْمَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ"[٣]، قال الخطابي -رحمه الله-: (إنما نهاهم عليه السلام عن تسمية هذه الشجرة كرمًا؛ لأن هذا الاسم مشتق عندهم من الكرم، والعرب تقول رجل كرم، بمعنى: كريم، وقوم كرم، أي: كرام [...] فأشفق ﷺ أن يدعوهم حسن اسمها إلى شرب الخمر المتخذة من ثمرها، فسلبها هذا

---

[١] مجموع الفتاوى، (ج٢٧/ص٣٩٤).

[٢] تيسير الكريم الرحمن، (ص٦١).

[٣] رواه مسلم وأحمد وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد.

الاسم وجعله صفة للمسلم الذي يتوقى شربها، ويمنع نفسه الشهوة فيها، عزّة وتكرّمًا)[١]، وقال ابن القيم: (ومَن عرف سرَّ تأثير الأسماء في مسمَّياتها نُفرةً وميلًا عرف هذا، فسلبها النبي ﷺ هذا الاسم الحسن، وأعطاه ما هو أحق به منها، وهو قلب المؤمن)[٢].

والناظر في تاريخ الإحداث في دين الله؛ يجد أن المصطلحات المجملة التي قد يُفهم منها معان بعضها حق وبعضها باطل: كانت هي من أهم طرائق المبتدعة لإبطال الحق وإحقاق الباطل تسترًا خلفها ولوذًا بها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأمَّا الألفاظُ الَّتي ليست في الكتاب ولا في السُّنَّةِ، ولا اتَّفق السَّلف على نفيها أو إثباتها: فهذه ليست على أحدٍ أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتَّى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنىً يوافق خبر الرَّسُولِ ﷺ أقرَّ به، وإن أراد بها معنىً يخالف خبر الرَّسُولِ ﷺ أنكره.، ثمَّ التَّعبير عن تلك المعاني؛ إن كان في ألفاظه اشتباهٌ أو إجمالٌ: عُبِّر بغيرها أو بيَّن مُرادهُ بها؛ بحيث يحصل تعريفُ الحقِّ بالوجه الشَّرعي؛ فإنَّ كثيرًا من نِزَاعِ النَّاس سببه ألفاظٌ مجملةٌ مبتدعةٌ، ومعانٍ مشتبهةٌ)[٣].

فالنجاة هي في التمسك بما جاء به الشرع، وما كان عليه الصحابة -رضي الله عنهم-؛ فنطلق ما أطلقوا من الألفاظ والمصطلحات، ونسكت عما عنه سكتوا، قال أبو حامد الغزالي: (ما سكتَ عنهُ الصحابةُ معَ أنَّهم أعرفُ بالحقائقِ وأفصحُ بترتيبِ الألفاظِ مِن غيرِهم، إلَّا لعلمِهِم بما يتولَّدُ منهُ من الشرِّ)[٤].

---

[١] معالم السنن، (ج٤/ص١٣٠-١٣١).
[٢] تهذيب سنن أبي داود، (ج٣/ص٣٧٧).
[٣] مجموع الفتاوى، (ج١٢/ص١١٤).
[٤] إحياء علوم الدين، (ج١/ص٣٤٨).

فصل: المصطلح في الخطاب الدعوي

إن قضية المصطلح في الخطاب الدعوي قضية عظيمة الأهمية جدًّا؛ إذ المصطلح يتجاوز صورته الظاهرة كمجموعة حروف أو كلمات بما هو أكثر أبعادًا وأعظم غورًا؛ ذلك أن المصطلح في خطاب الداعية هو المعبر الأول عن الهوية، كما أنه المعبر عن درجة الانتماء لهذه الهوية؛ فإن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخُلُق، والدِّين تأثيرًا قويًّا بينًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخُلُق)[١]، ومن ثم كان التمسك بالمصطلح الشرعي علامة على زيادة العقل والدين والخُلُق، مع كونه في الوقت نفسه علامة على الاستعلاء والاعتزاز بالموروث الأصيل، وعدم التبعية الممقوتة والضعف والانهزامية للوافد الدخيل، وهذه الأمور كلها من أظهر مقومات صحة الأمة وعافيتها، ودلائل قوتها وثقتها بنفسها، فضلًا عن كونها صفات ذاتية للطائفة المنصورة.

ثم إن أهل الطائفة المنصورة في دعوتهم الخلق للحق: لا يخاطبونهم بلغة مجملة مضطربة هروبًا من التصريح بما يجب التصريح به؛ كما لا يخاطبونهم بتكلفٍ وتقعرٍ مذموم، أو بمصطلحات مولّدة غريبة، قد تحمل من الباطل أكثر مما تحمله من حق، فضلًا عما فيها من هجر للمصطلحات الشرعية، وهم في ذلك كله ينطلقون من القرآن الكريم ذلك الكتاب المعجز، فخطابهم الدعوي خطاب قرآني في لغته، كما أنه قرآني في مضمونه؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠-٧١]، فأمرنا الله تعالى بأن نقول قولًا سديدًا، والقول السديد: هو

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم، (ج١/ص٥٢٧).

ما كان سديدًا في معناه، سديدًا في مبناه، تبعًا للمخاطب به، وأسدُّ القول وأحسنه: قول الله سبحانه وتعالى الذي أنزل للناس كافة.

إن الخطاب الدعوي لأهل الطائفة المنصورة يتميز عن غيرهم بميّزات؛ منها:

أولًا: عدم التكلف في العبارة؛ فالتكلف مذموم مطلقًا، وقد جاءت الشريعة بالنهي عنه، ومن أسوأ التكلف: التكلف في الخطاب الدعوي بتشديق الكلام، والتقعر به والتفاصح فيه، والولع بالتراكيب اللغوية المتكلفة، والتفنن فيها والاهتمام الزائد بها، والذي يصل في أحيان كثيرة إلى التفريط في المضمون لصالح الشكل، مع ترك الاسترسال السلس في العبارة والكلمات قريبة التداول سريعة الوصول للعقول والقلوب، شغفًا بهذه التراكيب لدعم البلاغة والرصانة في العرض، والعمق والجدية في الطرح، وليس هذا من ذاك في شيء؛ فالقرآن الكريم وهو مقياس الفصاحة والبلاغة سهل المأخذ، داني القطاف، ينساب في عذوبة واسترسال إلى القلوب والعقول بغير تكلف، وقد وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه مُبين فقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، قال ابن كثير: (وقوله تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}؛ أي: هذا القرآن الَّذي أنزلناه إليك، أنزلناه باللسان العربيّ الفصيح الكامل الشَّامل؛ ليكون بيّنًا واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعُذرِ، مقيمًا للحُجَّة، دليلًا إلى المحجَّة)[١].

فسهولة الخطاب ويسره مع وضوح المقصود وظهوره لا تعني الركاكة، كما أن التكلف وليّ الألفاظ لا يعني البلاغة والبيان، والنبي ﷺ هو أفصح من نطق بالضاد، وقد أوتي جوامع الكلم وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالبلاغ المبين فقال: {وَأَطِيعُوا

[١] تفسير القرآن العظيم، (ج٦/ص١٦٢).

اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [التغابن: ١٢]، فبلغ ﷺ البلاغ المبين مع امتلاكه ناصية الفصاحة، واعتلائه صهوة البلاغة والبيان، ومع هذا كله فأحاديثه وأقواله ﷺ أبعد ما تكون عن التكلف والتعمق في لفظها ونظمها وتراكيبها، قالت عائشة -رضي الله عنها-: (كان كلامُ رسول الله ﷺ كلامًا فصلًا، يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ)[١]، وعن أبي ثعلبة الخشني -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي: الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ"[٢]؛ قال المناوي: (الثَّرْثَارُونَ: أي الذين يكثرون الكلام تكلفًا وتشدقًا، والثرثرة: كثرة الكلام وترديده، [و]الْمُتَفَيْهِقُونَ: أي الذين يتوسعون في الكلام، ويفتحون به أفواههم، ويتفصحون فيه، [و]الْمُتَشَدِّقُونَ: الذين يتكلمون بأشداقهم ويتمقعرون في مخاطبتهم)[٣].

فَهمُّ أهل الطائفة المنصورة الأكبر في دعوتهم الخلق إلى الحق: هو إيصال هذا الحق إلى القلوب والعقول؛ لتعقل عن الله دينه وشرعه، لا لإظهار القدرات اللغوية والمهارات الأدبية والتصرف في فنون القول؛ مما يخرج بالدعوة عن هدفها ومقصودها الأساس، والمتأمل في كتبه ورسائله ﷺ، التي كان يرسلها للدعوة: يجد فيها التركيز على إيصال الدعوة للغير، والإفصاح عن مقصودها دون تكلف لفظ أو ترتيب، وإنما هو وضوح المقصد وسلاسة العبارة وقوة المنطق ونفاذ المعنى، وعلى هذا جرى خير من حمل هذا الدين في دعوة الناس إليه؛ قال الشاطبي -رحمه الله-: (وعلى هذا النَّحو مرَّ السَّلف الصَّالح في بثِّ الشَّريعة للمؤالف والمخالف، ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفيَّة: علم أنَّهم قصدوا أيسر الطُّرق وأقربها إلى عقول [المخاطبين و] الطَّالبين، لكن من غير ترتيبٍ متكلَّف ولا نظمٍ مؤلَّفٍ، بل كانوا

[١] رواه أحمد، وأبو داود، والتِّرْمِذِيُّ، والنسائي، وابن أبي شيبة، وغيرهم، باختلاف يسير، (إسناده حسن).
[٢] رواه ابن حبان واللفظ له، وأحمد، والتِّرْمِذِيُّ، وقال: حديث حسن.
[٣] فيض القدير، (ج٣/ص٤٦٤).

يرمون بالكلام على عواهنه، ولا يبالون كيف وقع الكلام في ترتيبه، إذا كان قريب المأخذ سهل المُلتمس)[١].

ثانيًا: البعد عن الإجمال الملبس، الذي يوقع المدعو في الحيرة والتخبط، فلا يدري معه ما الذي يريده الله منه، فقد أنزل الله تعالى كتابه مفصلًا، خاصة فيما يتعلق بأصل الدين من الإيمان والتوحيد، وما يتعلق بما يجب فعله، وما يجب تركه من الواجبات والمحرمات، فكان الإجمال في هذه المواضع عند العلم بالتفصيل، من الكتمان الذي حرمه الله وتوعد صاحبه؛ قال تعالى: {وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [الأنعام: ١٢٦]، قال السعدي -رحمه الله-: (أي: معتدلًا، موصلًا إلى الله، وإلى دار كرامته، قد بُينت أحكامه، وفُصلت شرائعه، وميز الخير من الشر)[٢]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} [التوبة: ١١٥]، فالتفصيل لمسائل الدين الكبار ومسائله الأصلية: مانع من الضلال ووقاية من الانحراف؛ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ"[٣].

وهذا الإجمال غالبًا ما يكون دافعه الجهل أو إيثار السلامة، وكلاهما مما لا يتحقق معه وضوح وبيان الخطاب الدعوي، وإن المتأمل لحال أهل العلم في عصرنا: ليلمس أن إيثار السلامة هو السمة العامة لكثير منهم إلا من رحم ربي؛ فكثر الإجمال في مقالهم، وعمّ التلبيس في كتاباتهم، وسكتوا عن ظلم الطواغيت، وتنكيلهم بأهل الحق

[١] الموافقات، (ج١/ص٧٠-٧١).
[٢] تيسير الكريم المنان، (ص٢٧٣).
[٣] متفق عليه.

الصادعين بالصدق، وليتهم إذ جبنوا عن الصدع بالحق: كفوا ألسنتهم وأمسكوا أقلامهم عن الطعن في أهل الحق المجاهدين، الذين عقدوا على عاتقهم نصرة هذا الدين وتبليغه للعالمين، وقد نص العلماء على أن الإجمال فيما حقُّه التفصيل والبيان: هو من زلة العالم التي تُحذَر ويُحذَّر منها، والتي يتولد منها شر مستطير وفساد عظيم، قال المناوي: «(احذروا زلة العالم»؛ أي: احذروا الاقتداء فيه فيها ومتابعته عليها)، ثم ذكر أمثلة لذلك؛ ومنها: (تسارعه إلى الجواب من رأس القلم أو اللسان، وإجماله في محل التفصيل والبيان، فهذه ذنوب يتبع العالم فيها العالم، فيموت العالِم ويبقى شره مستطيرًا في العالم)[١].

اللهم ارزقنا أن نكون بكتابك وسنة نبيك ﷺ من المتمسكين، وبحقهما من القائمين، وإليهما من الداعين، وعنهما من المنافحين.

[١] فيض القدير، (ج١/ص١٨٧).

الباب الخامِسُ: {وَاللهُ أحقُّ أنْ تَخشَوْهُ}

فإنَّ المتأمِّلَ في أحوالِ أُولي الأمر من العُلماءِ والأمراءِ: ليجدُ أنَّ مراتبهم في نفوسِ الخلقِ تتفاوت، سُمُوًّا ورفعة، وخفضًا وضَعَة، بحسب اقتران فعالهم بأقوالهم؛ فإن النفوس فطرت على تعظيم وتقدير من أتبع قوله فعله، والعكس بالعكس.

ولذا كان اقتضاءُ القول العمل أحد الأسس التي تقوم عليه الدعوة عند أهل الطائفة المنصورة؛ إذ هو دليل صدق الدعوة، ودليل صدق أصحابها، وعلامة يقينهم فيما يدعون الناس إليه، بل هو ذاته دعوةٌ أبلغ من دعوة القول؛ إذ قد فطر الله النفوس على أن تستجيب للسان الحال أعظمَ من استجابتِها للسان المقال؛ ولذا فكل ما اتسعت مسافة الخُلفِ بين القول والعمل كلما قل تأثير القول في المدعوين، فكان عِيّ الفعال كَعِيّ المقال، بل هو أشد.

وقد نهى الله تعالى عن مخالفة العمل للقول؛ فقال سبحانه: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤]، قالَ القُرطبي: (هَذَا اِسْتِفْهَامٌ معناه التَّوْبِيخُ، وَالْمُرَادُ فِي قَوْل أَهْل التَّأْوِيل: عُلَمَاءُ الْيَهُود؛ قَالَ اِبْن عَبَّاس: «كَانَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ يَقُولُ الرَّجُل مِنْهُمْ لِصِهْرِهِ وَلِذِي قَرَابَته، وَلِمَنْ بَيْنه وَبَيْنه رَضَاعٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ: أُثبُتْ عَلَى الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، وَمَا يَأْمُرك بِهِ هَذَا الرَّجُلُ -يُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ-؛ فَإِنَّ أَمْره حَقٌّ. فَكَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاس بِذَلِكَ، وَلَا يَفْعَلُونَهُ»[1])[2].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢-٣]؛ قال السعدي: (أي: لمَ تقولون الخير،

[1] نقله الواحدي في أسباب التنزيل (ص٢٤) بسند معضل عن أبي صالح عن الكلبي عن ابن عباس، قال السيوطي في الإتقان: أوهى طرق التفسير عن ابن عباس (إسناده ضعيف جدًّا).
[2] الجامع لأحكام القرآن، (ج١/ص٥٦).

وتحثـون عليـه، وربما تمدحتم بـه، وأنتم لا تفعلونـه، وتنهـون عن الشـر، وربما نـزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون متصفون به؟ فهل تليقُ بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم مِن أكبرِ المقت عند الله، أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير: أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر: أن يكون أبعد الناس عنه)[١].

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: (فمن وافق قولُه فعلَه فذاك الَّذي أصابَ حظَّه، ومن خالف قولُه فعله فإنَّما يُوبِّخ نَفسهُ)[٢].

ومن حديث أسامةَ بن زيد -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَما يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ؛ ما شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهانا عَنِ المُنْكَرِ؟ قالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وَأَنْهاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ"[٣].

وعن أنس -رضي الله عنه- قال، قال رسول الله ﷺ: "رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ النَّارِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: «الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ؛ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟»"[٤]، وقد ترجم ابن حبان -رحمه الله- لهذا الحديث بقوله: (ذكر وصف الخطباء الَّذين يتَّكلون على القول دون العمل حيث رآهم ﷺ ليلة أسري به)، فكان مَثَل من خالف عمله قوله:

كَحَامِلٍ لِثِيَابِ النَّاسِ يَغْسِلُهَا *** وَثَوْبُهُ غَارِقٌ فِي الرِّجْسِ وَالنَّجَسِ[٥]

---

[١] تيسير الكريم الرحمن، (ص٨٥٨).

[٢] رواه أحمد في الزهد (ص١٣٢).

[٣] رواه البخاري.

[٤] رواه ابن حبان (إسناده صحيح).

[٥] بيت للشافعي، ديوان الشافعي (ص٧٥).

ولقد كان أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام يدعون الناس بأفعالهم قبل دعوتهم إيَّاهم بأقوالهم، فكانوا -عليهم السلام- أولَ مبادر لما يأمرون به، وأوّلَ منتهٍ عما ينهون عنه، قال تعالى عن شعيبٍ عليه السلام أنه قال لقومه: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨]، قال ابن جرير: (يقُول: وَمَا أُرِيد أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْ أَمْرٍ، ثُمَّ أَفْعَل خِلَافه، بَلْ لَا أَفْعَل إِلَّا مَا آمُرُكُمْ بِهِ، وَلَا أَنْتَهِي إِلَّا عَمَّا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)[١]، وتأمّل مليًّا قوله تعالى في قصة نبيه الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسُفَ -عليه السلام-: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٣٦]، فرؤيتهما له -عليه السلام- من المحسنين هي التي دعتهما للركون إليه والثقةِ في قوله، فكان حاله -عليه السلام- أسبق وأسرع وأشد في التأثير في نفسهما من مقاله، بل كان هذا الحال هو الأساس الذي قامت عليه دعوة المقال بعد ذلك.

فصل: موافقة القول للعمل

إن للفعل تأثيرًا في النفوس يفوق تأثير القول المجرد مما يجعل استجابتها للفعل أكثر من استجابتها للقول، وقد قامت الدلائل الكثيرة على ذلك؛ منها: ما رواه ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: (اتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ"، فَنَبَذَهُ وَقَالَ: "إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا"، فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ)[٢]، وقد استنبط أهل العلم من هذا الحديث: أن الفعل أبلغ من القول، ومما يدل على ذلك أيضًا ما جاء في قصة صُلح الحديبية؛ وفيها:

[١] جامع البيان، (ج١٢/ص٥٤٩).
[٢] رواه البخاري,

(فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا"، قَالَ: فَوَ اللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ؛ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا)[١]، وقد انتزع أهلُ العلم من هذا الحديث أن البيان بالفعل أقوى من البيان بالقول، وقال الإمام مالك: بلغني أن القاسمَ بن محمَّدٍ كان يقول: (أدركت النَّاس وما يَعْجَبُونَ بالقول)، قال مالكٌ: (يريد بذلك العمل، إنَّما يُنظرُ إلى عمله، ولا يُنظرُ إلى قوله)[٢].

ومن المعلوم أن مخالفة العملِ للقول: مما يؤدي إلى أعظم ما يكون من الفساد والفتنة في الدين؛ حيث يختلط عند الناس الحق بالباطل، بل ويكون الدين في أعينهم في صورة شديدة، من جراء ما يرونه من مفارقة العمل للقول في واقع حَمَلة الدين ورجاله المتحدثين باسمه، وما أفقه قول وهيبٍ حيث قال: (ضُرب مثلٌ لعُلماء السُّوءِ فقيل: إنَّما مثلُ عالمِ السُّوءِ كمثل الحجر في السَّاقية، فلا هو يشربُ الماء، ولا هو يُخلِي الماء إلى الشَّجرة، فتحيا به)[٣]! قال ابن القيم: (علماءُ السَّوْءِ جلسوا على بابِ الجنَّةِ يدعونَ إليها الناسَ بأقوالِهِم ويَدْعونَهُم إلى النار بأفعالِهِم؛ فكلَّما قَالتْ أقوالُهُم للناس: هَلُمُّوا! قالتْ أفعالُهُم: لا تَسْمَعوا منهم! فلو كان ما دَعَوْا إليه حقًّا كانوا أولَ المستجيبين له! فهم في الصورة أدِلَّاءُ وفي الحقيقةِ قُطَّاعُ الطريق)[٤].

---

[١] رواه البخاري.

[٢] الموطأ رواية أبي مصعب، (ج٢/ص٤٢٠).

[٣] رواه أبو نعيم في الحلية، (ج٨/ص١٤٦).

[٤] الفوائد، (ص٨٥).

ولذا فإنَّ أبصارَ المدعوين شاخصةً نحو الدعاة، تحصي عليهم كل شيء وإن دق؛ إذ لما نصَّبوا أنفسهم لدعوة الناس: نصَّب الناسُ إليهم وجوههم، وقد قال تعالى في حقِّ أُمَّهات المؤمنين -رضي الله عنهن-: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [الأحزاب: ٣٠]، وما ذاك إلا لأنهن قُدوات، مع ما فيه من صيانةٍ لجنابهن وجناب رسول الله ﷺ، فلما كانت مكانتهنّ رفيعة: ناسَبَ أن يجعل الله الذنب الواقع منهم عقوبتُهُ مغلظة؛ فأفاد ذلك أن من عظُمت منزلته وشخصت الأبصارُ إليه: ليس كغيره من الخاملين الذين لا يأبه لهم؛ إذ الأول محل النظر، والاقتداء دون الثاني.

قال ابن القيم: (فقواعدُ الشرع تقتضي أن يُسامَحَ الجاهلُ بما لا يُسامَحُ به العالِم، وأنه يُغْفَرُ له ما لا يُغْفَرُ للعالِم؛ فإنَّ حُجَّةَ الله عليه أقْوَمُ منها على الجاهل، وعلمَه بقُبْح المعصية وبُغْض الله لها وعقوبته عليها أعظمُ من علم الجاهل، ونعمةَ الله عليه بما أودعه من العلم أعظمُ من نعمته على الجاهل، وقد دلَّت الشريعةُ وحكمُ الله على أنَّ من حُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالفضل والإكرام، ثمَّ أسامَ نفسَه مع هَمَل الشهوات، فأرتَعَها في مراتع الهَلَكات، وتجرَّأ على انتهاك الحرمات، واستخفَّ بالتَّبِعات والسيئات: أنَّه يقابلُ من الانتقام والعَتْب بما لا يقابَلُ به من ليس في مرتبته)[١].

فالقاعدة هنا: أنه كلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم؛ لخصوصية المنزلة والمحل، وقد كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله؛ فقال: (إِنِّي نَهَيْتُ النَّاسَ عَنْ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لا أَجِدُ أَحَدًا مِنْكُمْ فَعَلَهُ إِلا أَضْعَفْتُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ)[٢]، بل إن الداعية قد لا يسعه ما يسع الناس لخصوص منزلته،

---

[١] مفتاح دار السعادة، (ج١/ص٥٠٣).

[٢] رواه الطبري في تاريخه (ج٤/ص٢٠٧)، ورواه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بنحوه.

وخصوص ما نصَّب نفسه له، وعلى هذا جرى الدعاة الهداة، قال الإمام الأوزاعيُّ: (كُنَّا نضحك ونمزح، فلمَّا صرنا يُقتدى بنا خشيتُ ألا يسعنا التَّبسُّمُ)[١]، وقال القاضي عياض: (لا ينبغي لمن يُقتدى به إذا ترخّصَ في أمرٍ لضرورة، أو تشدَّد فيه لوسوسة، أو لاعتقاده في ذلك مذهبًا شذَّ به عن الناس أن يفعله بحضرة العامة الجهلة؛ لئلا يترخَّصوا بترخصه لغير ضرورة، أو يعتقدوا أن ما يُشدَّد فيه هو الفرض واللازم)[٢]، فكيف بما هو فوق ذلك من المخالفات الظاهرة المنادى عليها؟ وقد قيل: إذا اشتغل العلماء بجمع الحلال: صار العوام أكلة الشُبهة، وإذا صار العلماء أكلة الشبهة: صار العوام أكلة الحرام، وإذا صار العلماء أكلة الحرام: صار العوام كفَّارًا.

ومن ثمَّ؛ فالظالم لنفسه بمخالفة عمله لقوله لا يكون إمامًا يقتدى به أبدًا، وهو ما يدل عليه عموم قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]، عن مجاهدٍ أنه قال في الآية السابقة: (لا أجعل إمامًا ظالـمًا يُقْتَدى به)[٣]، وإنما لا يكون من خالف عملُه قولَه إمامًا؛ لأن النفوس مجبولةٌ على عدم الانقياد على من يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

وقد قيل:

يَا وَاعِظَ النَّاسِ؛ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهَمًا *** إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا[٤]

ومن هذا القبيل: قولُ الإمام عبد الله بن المبارك في إسماعيل بن علية –رحمهما الله جميعًا– لما تولى ولاية للصدقة عند الرشيد؛ حيث كتب له يقول:

---

[١] رواه البيهقي في المدخل، (ص٣٣٦).

[٢] إكمال المعلم بفوائد مسلم، (ج٢/ص٥٣-٥٤).

[٣] رواه الطبري في تفسيره، (ج٢/ص٥١٣).

[٤] البيت لأبي العتاهية. انظر: الأغاني للأصفهاني (ج٤/ ص٣٨)، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ج١/ص٦٧١).

يَا جَاعِلَ العِلْمِ لَهُ بَازِيًا *** يَصْطَادُ أَمْوَالَ المِسَاكِيْنِ

احْتَلْتَ لِلدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا *** بِحِيْلَةٍ تَذْهَبُ بِالدِّيْنِ

فَصِرْتَ مَجْنُوْنًا بِهَا بَعْدَ مَا *** كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِيْنِ

أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فِيْمَا مَضَى *** عَنِ ابْنِ عَوْنٍ وَابْنِ سِيْرِيْنِ؟

وَدَرْسُكَ العِلْمَ بِآثَارِهِ *** فِي تَرْكِ أَبْوَابِ السَّلاَطِيْنِ؟

تَقُوْلُ: أُكْرِهْتُ، فَمَاذَا؟ كَذَا *** زَلَّ حِمَارُ العِلْمِ فِي الطِّيْنِ

لاَ تَبِعِ الدِّيْنَ بِالدُّنْيَا كَمَا *** يَفْعَلُ ضُلاَّلُ الرَّهَابِيْنِ[1]

هذا وابن علية ابن علية، والرشيد الرشيد.

وعن سفيان الثوري قال: (المال داءُ هذه الأمَّة، والعالمُ طبيبُ هذه الأمَّة؛ فإذا جرَّ العالم الدَّاء إلى نفسه، فمتى يُبرِئُ النَّاس؟)[2].

قال المناوي[3]: (فانظر إذا كُنتَ إمامًا أيَّ إمامٍ تكون، فربَّما نجتِ الأمَّة بالإمامِ الواحد، وربَّما هلكت بالإمام الواحد؛ وإنَّما هما إمامان؛

إمام هدىً: قال الله عز وجلَّ: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} [السجدة: ٢٤]، يعني: على الدُّنيا، وإنَّما صاروا أئمَّةً حين صبروا عن الدُّنيا، ولا يكون إمامُ هُدىً حَجَّةً لأهل الباطل فإنَّه قال: {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} [السجدة: ٢٤]، لا بأمر أنفسهم، ولا بأمور النَّاس.

[1] رواها ابن عبد البر في الجامع (ج١/ص٦٣٧). انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، (ج٩/ص١١٠).

[2] هذا اللفظ ذكره الذهبي في السير (ج٧/ص٢٤٣)، ورواه أبو نعيم في الحلية (ج٦/ص٣٦١)، والبيهقي في الشعب (ج٢/ص٣٠٧) باختلاف يسير.

[3] الصواب من قاله سعيد بن العباس الرازي.

وإمامٌ آخر: قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} [القصص: ٤١]، ولا تجد أحدًا يدعو إلى النَّار، ولكنَّ الدُّعاةَ إلى معصية الله. فهذان إمامان هما مثلٌ من الَّذين خلوا من قبلكم وموعظةٌ للمتقين)[٤].

ومتى خالف العمل القول: فقد القول مصداقيته، وشك المدعوون في يقين قائله فيه؛ إذ لو كان القائل على يقين من صحة وصدق ما يدعو إليه: لكان أول مبادر إليه مستمسك به، قال المناوي: (منزلة الواعظ من الموعوظ كالـمُداوي من المداوى، فكما أن الطبيب إذا قال للناس: لا تأكلوا كذا فإنه سم، ثم رأوه يأكله: عُدّ سخرية وهزوًا؛ كذا الواعظ إذا أمر بما لم يعمله، ومن ثم قيل: يا طبيب طب نفسك، فالواعظ من الموعوظ يجري مجري الطابع من المطبوع، فكما يستحيل انطباع الطين من الطابع بما ليس منتقشًا فيه، فمحال أن يحصُل في نفس الموعوظ ما ليس في نفس الواعظ)[٢].

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتِيَ مِثلَهُ *** عارٌ عَلَيكَ إِذا فَعَلتُ عَظيمُ
ابدأ بِنَفسِكَ وَانهَا عَن غَيِّها *** فَإِذا انتَهَت عَنهُ فَأَنتَ حَكيمُ
فَهُناكَ يُقبَل ما وَعَظتَ وَيُقتَدى *** بِالعِلمِ مِنكَ وَيَنفَعُ التَعليمُ[٣]

فصل: معرفة الحق لا ترتبط بالرجال

إن أهل الطائفة المنصورة، وإن كانوا يحفظون لأهل العلم الذين اتبعوا أفعالهم أقوالهم قدرهم ومكانتهم؛ إلا أنه ليس في ميزان أهل الطائفة المنصورة أن يعرفوا الحق بهم، وإنما هم يعرفون الرجال بالحق؛ فالرجال ما هم إلا وسيلة لمعرفة الحق ببيان دليله، وما يقوم عليه، لا أن الحق يعرف بهم، فيدار معهم في جميع أقوالهم وأفعالهم! إذ اتباع

---

[٤] رواه أبو نعيم في الحلية (ج١٠/ص٧٠).
[٢] فيض القدير، (ج١/ص٧٨).
[٣] أبيات لقصيدة أبي الأسود الدؤلي، انظر: ديوان أبي الأسود، جمع أبي سعيد السكري، (ص٤٠٤).

الرجال أيًّا كان شأنهم من الدين علمًا وعملًا، بغير حجة قائمة: من أوسع أودية الباطل، ومن أعظم أسباب الضلال، فضلًا عن كونه سبيل ضعاف العقول، وقد اتفق أهل العلم كافة على أن معرفة الحق بالرجال (وهو التقليد): خارج عن طرق العلم وسبله ممن هو دال على كون من عرف الحق بالرجال يسير على غير بصيرة من أمره، وإنما لم يزل بعد في ظلمات الجهل يتخبط؛ قال ابن القيم: (لا خلاف بين الناس أنَّ التقليد ليس بعلم، وأنَّ المقلِّد لا يطلَق عليه اسمُ عالم)[1]، ولما كان العلم هو ما قام عليه الدليل، وكانت معرفة الحق بالرجال خارجةً عن طُرق العلم وسبله: كان من عَدَل عن الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، وعن معرفة الحق بالدليل مع تمكنه منه إلى التقليد، كمن عدل إلى الميتة مع تمكنه إلى المُذكاة؛ فإن الأصل ألا يقبل قول الغير إلا بدليل إلا عند الضرورة، كما قال ابن القيم -عليه رحمة الله-: وقد ذم أتباع الرجال بغير حجة قائمة غاية الذم، بل وجعل ذلك من أعظم أسباب الإعراض عن دينه الذي أنزله وارتضاه[2].

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧٠-١٧١]؛ قال القرطبي: (قال علماؤنا: وقُوَّةُ ألفاظِ هذه الآية تعطي إبطالَ التقليد، ونظيرُها: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [المائدة: ١٠٤])[3]؛ قال الشوكاني في قولهم: {حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [المائدة: ١٠٤]: (وقد صارت هذه المقالة الَّتي قالتها الجاهليَّةُ نصب أعيُن المقلدة، وعصاهم التي يتوكؤون عليها إن دعاهم داعي الحقِّ، وصرخ لهم صارخ

[1] أعلام الموقعين، (ج١/ص٩٥).
[2] ذكره الزرقاوي بالمعنى. أعلام الموقعين، (ج٣/ص١٥٤-١٥٥).
[3] الجامع لأحكام القرآن، (ج٢/ص١٥).

الكتاب والسُّنَّة، فاحتجاجُهم بمن قلَّدوه ممَّن هو مثلهم في التَّعبد بشرع الله، مع مخالفةِ قوله لكتاب الله أو لسنَّة رسوله: هو كقول هؤلاء، وليس الفرق إلَّا في مجرَّد العبارة اللَّفظيَّة، لا في المعنى الذي عليه تدور الإفادة والاستفادة)[١]، وقال الشوكاني في قوله: {أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [لقمان: ٢١]: (ما أقبح التَّقليد، وأكثر ضررهُ على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشأم عائدته على من وقع فيه؛ فإنَّ الدَّاعي إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يُريدُ أن يذود الفراش عن لهب النَّار لئلا تحترق، فتأبى ذلك وتتهافت في نار الحريق وعذاب السَّعير)[٢]، وهذه الآيات السابقة؛ إن كانت قد نزلت أساسًا في الكفار، إلا أنها تشمل بعمومها كل من عرف الحق بالرجال موافقة لهم وتقليدًا بغير حجة من الله وبرهان، أيًّا كان محل التقليد وموضعه؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، مع اختلاف الحكم تبعًا لمحل التقليد وموضعه، قال ابن عبد البر: (ومثل هذا في القرآن كثيرٌ من ذمِّ تقليد الآباء والرُّؤساء، وقد احتجَّ العلماء بهذه الآيات في إبطال التَّقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأنَّ التَّشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان لآخر، وإنَّما وقع التَّشبيه بين التَّقليدين بغير حجةٍ للمُقلِّد، كما لو قلَّد رجلٌ فكفر، وقلَّد آخر فأذنب، وقلَّد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها: كان كُلُّ واحدٍ ملومًا على التَّقليد بغير حجة؛ لأنَّ كلَّ ذلك تقليدٌ يشبه بعضه بعضًا، وإن اختلفت الآثام فيه)[٣].

ومعرفة الحق بالرجال موافقة لهم وتقليدًا بغير حجة: هو دين أهل الكتاب، الذي حذرنا الله تعالى من الوقوع فيه، وهو مما كان سبب خروجهم عن الملة التي أنزل الله إليهم؛ قال تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} [التوبة: ٣١]؛ عن عدي بن حاتم -رضي الله عنه-، وكان قد قدم على النبي ﷺ وهو نصراني فسمعه

[١] فتح القدير، (ج٢/ص٩٤).
[٢] المرجع الساق، (ج٤/ص٢٧٨).
[٣] جامع بيان العلم وفضله، (ج٢/ص٩٧٧).

يقرأ هذه الآية: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]؛ قال: فقلت: يا رسول الله؛ إنَّا لسنا نعبدهم، قال ﷺ: "أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟"، قال قلت: بلى، فقال ﷺ: "فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ"[1]، قال الربيع بن أنس: (قلت لأبي العالية: كيف كانت الرُّبُوبِيَّةُ في بني إسرائيل؟ قال: كانت الرُّبُوبِيَّةُ أَنَّهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء؛ فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستنصحوا الرِّجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم)[2].

ومن لطيف ما ينشد هنا في بيان حال أمثال هؤلاء، ممن يعرف الحق بالرجال وقوفًا عندهم وإعراضًا عن الكتاب والسنة: قول منذر بن سعيد الْبَلُّوطِيّ حيث قال:

عَذِيرِيَ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ كُلَّمَا *** طَلَبْتُ دَلِيلًا: هَكَذَا قَالَ مَالِكُ!

فَإِنْ عُدْتُ قَالُوا: هَكَذَا قَالَ أَشْهَبُ *** وَقَدْ كَانَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ المَسَالِكُ
فَإِنْ زِدْتُ قَالُوا: قَالَ سَحْنُونُ مِثْلَهُ *** وَمَنْ لَمْ يَقُلْ مَا قَالَهُ فَهْوَ آفِكُ!
فَإِنْ قُلْتُ: «قَالَ اللهُ» ضَجُّوا وَأَكْثَرُوا *** وَقَالُوا جَمِيعًا: أَنْتَ قِرْنٌ مُمَاحِكُ
وَإِنْ قُلْتُ: «قَدْ قَالَ الرَّسُولُ» فَقَوْلُهُمْ: *** أَتَتْ مَالِكًا فِي تَرْكِ ذَاكَ المَسَالِكُ[3]

وهذا لسان حال، بل ولسان مقال كل من عرف الحق بالرجال: (أتت فلانًا في ذلك المسالك)، وهي شبهة لرد الحق واهية، ومفادها تعطيل الدين بالكلية وتفريغ النصوص من محتواها، ومن المقطوع به عند الجميع أن الحق لا يدور مع معين، إلا النبي ﷺ؛ لأنه لو كان كذلك لوجب اتباعه في كل ما قال، فحال المقلد في الباطل:

[1] رواه أحمد والتِّرْمِذِيُّ، وحسَّنه.
[2] هذا لفظ ابن تيمية في الإيمان الكبير، مجموع الفتوى (ج٧/ص٦٧)، ورواه الثعلبي في تفسيره (ج١٣/ص٣٠٧)، ورواه الطبري في تفسيره (ج ١١/ص٤٢٠) بنحوه,
[3] جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البرّ (ج٢/ ص١١٣٤).

وَهَل أَنا إِلاّ مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ *** غَويْتُ وَإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ[١]

وقد رسم أئمة الطائفة المنصورة عبر تاريخها المتصل هذا المعلم الهام من معالم الحق، وأمروا به ونهوا عن ضده؛ فعلي بن أبي طالب –رضي الله عنه– حين قال له الحارث بن عبد الله الأعور: أتظن أن طلحة والزبير –رضي الله عنهما– كانا على الباطل؟ فقال علي –رضي الله عنه–: (يا حارث! إنه ملبوسٌ عليك، إنَّ الحقَّ لا يُعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله)[٢]، وعن أبي مليكة –رحمه الله–: (أن عروة بن الزبير –رحمه الله– قال لابن عَبَّاسٍ: أضللت النَّاس، قال: «وما ذاك يا عُرَيَّةُ؟»، قال: تأمر بالعمرة في هؤلاء العشر، وليست فيهنَّ عمرةٌ، فقال: «أوَ لا تسألُ أُمَّك عن ذلك؟»، فقال عروة: فإنَّ أبا بكرٍ وعمرُ لم يفعلا ذلك! فقال ابن عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما–: «هذا الَّذي أهلككم –والله– ما أرى إلا سيعذِّبكم، إنِّي أُحدِّثكم عن النَّبِيِّ ﷺ وتجيؤوني بأبي بكرٍ وعمر»)[٣]، وكتب عمر بن عبد العزيز –رحمه لله– إلى النَّاس: (أنَّه لا رأي لأحدٍ مع سُنَّةٍ سَنَّها رسول الله ﷺ)[٤]، ودخل القعنبي –رحمه الله– على مالك فرآه يبكي، فسأله: ما الذي يُبكيك؟ فقال الإمام مالك: (يا ابن قعنَب؛ وما لي لا أبكي؟ ومن أحقُّ بالبكاء منِّي؟ لوددت أنِّي ضُربت لكلِّ مسألة أفتيت فيها بالرأي سوطًا، وقد كانت لي السعة فيما قد سُبِقت إليه، وليتني لم أُفتِ بالرأي)[٥]، وما أحسن كلمة الشافعي –رحمه الله– لتلميذه المزني! حيث قال له: (يا أبا إبراهيم؛ لا تقلدني في كل ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك؛ فإنه دين)[٦]، وقيل للإمام أحمد –رحمه الله–: (إن قومًا يدّعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان)، فقال –رحمه الله–:

---

[١] بيت في قصيدة لدريد بن الصمَّة، انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٤٦٩)، الأصمعيات، الأصمعي (ص١٠٧).

[٢] اختصره الزرقاوي. رواه البلاذري في أنساب الأشراف (ج٣/ ص٦٤).

[٣] رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه، (ج١/ص٣٧٧)، ورواه بنحوه ابن عبد البر في التمهيد (ج٨/ص٣٥٩)، وروى مسلم بعضه.

[٤] رواه المرزوي في السنة، (ص٣١)، والآجري في الشريعة، (ج١/ص٤٢٣)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (ج١/ص٢٦٢)، (إسناده صحيح).

[٥] رواه ابن حزم في الإحكام (ج٦/ص٥٧) ورواه ابن عبد البر في الجامع (ج٢/ص١٠٧٢).

[٦] لم أجده مرويًا عند أحد من المتقدمين. نقله الشعراني لواقح الأنوار (ج١/ص٦٣٤)، والدهلوي في حجة الله البالغة (ج١/ص٢٦٨) دون سند.

(أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحَّته يدعونه، ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣]، وتدري ما الفتنة؟ الكفر، قال الله تعالى: {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧]، يدعون الحديث عن رسول الله ﷺ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي)[١].

فأهل الطائفة المنصورة يتلمسون الحق من مظانه، فما أعياهم من حكم، أو نزل بهم من نازلة: طلبوا الحق من أصوله المستقرة لغير نظر منهم لما عليه الرجال من ذلك، أحياء كانوا أو أمواتًا، وأهل الطائفة المنصورة أول ما يحاكِمون إلى هذا الأصل أنفسهم، قبل أن يحاكموا غيرهم، فحاشاهم أن يكونوا أصحاب دعوة هم أول من يخالفها، وهم لذلك يضعون على هذا المحك أقوال وأفعال أقرب الناس وأحبهم إليهم؛ من شيخ أو عالم أو أمير و زعيم أو غيره، أو غير ذلك من كل مطاع لهم ومتبع، قال ابن رجب: (وها هنا أمرٌ خفيٌّ ينبغي التَّفطُّن له؛ وهو أنَّ كثيرًا من أئمَّةِ الدِّينِ قد يقولُ قولًا مرجوحًا ويكون مجتهدًا فيه، مأجورًا على اجتهاده فيه، موضوعًا عنه خطؤه فيهِ، ولا يكونُ المنتصِرُ لمقالته تلك بمنْزلته في هذه الدَّرجة؛ لأنَّه قد لا ينتصِرُ لهذا القولِ إلاَّ لكونِ متبوعه قد قاله، بحيث أنَّه لو قاله غيرُه من أئمَّة الدِّينِ: لما قبِلَهُ ولا انتصر له، ولا والى من وافقه، ولا عادى من خالفه، وهو مع هذا يظن أنَّه إنَّما انتصر للحقِّ بمنْزلة متبوعه، وليس كذلك؛ فإنَّ متبوعه إنَّما كان قصدُه الانتصارَ للحقِّ، وإنْ أخطأ في اجتهاده، وأمَّا هذا التَّابعُ؛ فقد شابَ انتصارَه لما يظنُّه الحقَّ إرادة علوِّ متبوعه، وظهور كلمته، وأنْ لا يُنسَبَ إلى الخطأ، وهذه دسيسةٌ تَقْدَحُ في قصد الانتصار للحقِّ، فافهم هذا؛ فإنَّه فَهْمٌ عظيم، والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم)[٢].

[١] نقله ابن تيمية في الصارم المسلول، (ص٥٧)، وابن مفلح في الفروع (ج١١/ص١٠٧) عن أبي طالب.

[٢] جامع العلوم والحكم، (ج٢/ص٢٦٧-٢٦٨).

إن أهل الطائفة المنصورة، وإن كانوا يحيطون أهل العلم العاملين بهالةٍ من الإجلال والتقدير؛ إلا أنهم مع ذلك يوقنون بأن العصمة منتفية عن غير الأنبياء عليهم السلام؛ ولذا فإذا بدا من أحد هؤلاء العلماء زلة، أو ظهر منه خطأ: فإنهم يدعون إلى اجتناب زلته، وعدم متابعته على خطئه، وإن كان صاحبها قد يكون معذورًا بل مأجورًا إن كان مجتهدًا، قال ابن عبد البر: (وإذا ثبت وصحَّ أنَّ العالم يُخطئ ويزلُّ، لم يجز لأحدٍ أن يُفتي ويدين بقولٍ لا يعرفُ وجهه)[1].

فصل: زلة أهل العلم

وقد حذر أئمة الطائفة المنصورة من زلة العالم، وبينوا خطرها، ووجوب اجتنابها وطرحها، وعدم متابعته فيها؛ قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: (ثَلَاثٌ يَهْدِمْنَ الدِّينَ: زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ)[2]، وقال معاذ بن جبل -رضي الله عنه-: (وأحذِّرُكم زَيغَةَ الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحق، قيل له: وكيف زيغةُ الحكيم؟ قال -رضي الله عنه-: هي الكلمة تُرَوِّعُكُمْ وَتُنْكِرُونَهَا، وتقولون: ما هذه؟ فاحذروا زيغته)[3].

وقد قيل زلة العالم يضرب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل؛ وذلك لأن الجاهل غير محتج به، غير متبع في أمره.

ولله در القائل:

العَيْبُ فِي [الجاهل] المغْمُوْرِ مَغْمُوْرُ *** وَعَيْبُ ذِي الشَّرَفِ المذْكُوْرِ مَذْكُوْرُ

---

[1] جامع بيان العلم وفضله، (ج٢/ص٩٨٢).

[2] رواه الدارمي وابن عبد البر في الجامع (ج٢/ص-٩٧٩)، وغيرهما. وقال ابن كثير في مسند الفاروق (ج٣/ص-٧٨)، بعد ذكر طرقه: (فهذه طرق يشدّ القوي منها الضعيف، فهي صحيحة من قول عمرَ -رضي الله عنه-، وفي رَفْعِ الحديث نظرٌ).

[3] اختصره الزرقاوي، رواه ابن عبد البر في الجامع (ج٢/ص٩٨١)، ورى أبي داود والدرامي وعبد الرزاق وغيرهم بنحوه من طرق وألفاظ متقاربة (إسناده صحيح).

كَفُوْفَةِ الظُّفْرِ تَخْفِي مِنْ حَقَارَتِهَا *** وَمِثْلهَا فِي سَوَادِ العَيْنِ مَشْهُوْرُ[٤]

فالعالم منظور إليه، محتج به، متبع في أمره؛ ولذا كانت زلة العالم زلة له ولمن يقتدي به، فأثرها متعد لا لازم؛ فأمر العلماء خطر، وعليهم وظيفتان: ترك الذنب، ثم إخفاؤه إن وقع، وكما يتضاعف ثوابهم على الحسنات، فيضاعف عقابهم على الذنوب والسيئات إذا اتبعوا، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها، إما بربح أو خسران، وقد روي عن عيسى عليه السلام: أنه سئل من أشد الناس فتنة فقال: "زَلَّةُ الْعَالِمِ إِذَا زَلَّ الْعَالِمُ زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالَمٌ"[٢]، وأهل العلم بعد أن حذروا من زلة العالم، وأمروا بطرحها واجتنابها: بيّنوا موقعها من دين الله؛ فنصوا على كونها خارجة عن موارد الاجتهاد المعتبرة، منقطعة الصلة بمدارك الحق ومسالكه، ولذا كانت باطلة النسبة لدين الله وشرعه، ولكأن أبناء الأمة في هذه الأزمان أحوج ما يكونون للاستفادة من كلام هؤلاء الأئمة في تحذيرهم من زلة العالم، ودعوتهم إلى اجتنابها، ولا سيما في هذه الأزمان حيث كثرت فيه زلات أهل العلم، ولا سيما في موقفهم من الجهاد وأهله، وفي الآونة الأخيرة: بدت من بعض إخواننا أهل العلم، الذين كانت لهم سابقة في الدعوة إلى الله: هلاك وأخطاء؛ كان سببها بُعدهم عن ساحات الجهاد وعدم ممارستهم الفعلية للجهاد، فضربت بزلاتهم الطبول، وطارت بها وسائل الإعلام المسيرة كل مطار، كل ذلك بغية شق الصفوف، وتفريق الكلمة، وصد الناس عن الجهاد، وتنفيرهم من المجاهدين؛ فكان لزامًا علينا التنبيه على زلات إخواننا حتى لا يقتدي بهم فيها؛ عملًا بقول النبي ﷺ: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا"[٣].

---

[٤] بيتي لطاهر الحسين المخزومي، الدر الفريد وبيت القصيد، محمد بن أيدمر (ج٤/ص١٣٦).

[٢] رواه ابن المبارك في الزهد، (ص٥٢٠)، والهروي في ذم الكلام (ج٤/ص٢٨١).

[٣] رواه البخاري، وأحمد، والترمذي، وابن حبان.

فصل: فتنة المنظرين

إن مصطلح (منظري التيار الجهادي): مصطلح دخيل، كثر ذكره وامتهانه في الآونة الأخيرة، ولا سيما من قبل وسائل الإعلام؛ ليصدوا أبناء الأمة عن الجهاد، وهذا المصطلح في حقيقته هو فصام نكد بين القول والفعل؛ فإن أهل العلم على مر العصور، وكر الدهور: كانوا في مقدمة ركب الجهاد، كما سبق ذكره بشواهده غير مرة، ولم نسمع أن أحدًا منهم نظّر للأمة أحكام الجهاد، ثم هو قعد وتخلف عن الجهاد الواجب المتعين عليه، وكأنه ليس معنيًّا بهذا الخطاب، وإن المتأمل اللبيب ليلحظ أن هذا المصطلح في حقيقته: ذمٌّ وطعنٌ في أصحابه؛ حيث يدخلهم في قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ *كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢-٣].

إن المقرر عند أهل العلم أن الذي يفتي في مسألة ما: لا بد أن يكون عنده علم بالحكم الشرعي، وعلم بالواقع الذي يطبق عليه هذا الحكم، وإلا كانت فتواه مجانبة للصواب؛ قال ابن القيم: (ولا يتمكَّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحقِّ إلا بنوعين من الفهم؛

أحدهما: فهمُ الواقع، والفقهُ فيه، واستنباطُ علمِ حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع؛ وهو فهمُ حكمِ الله الذي حكَم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثمَّ يطبق أحدهما على الآخر)[١].

ولذا كان المجاهدون هم أسعد الناس بالدليل؛ لجمعهم بين الأمرين؛ حيث جمعوا بين الحكم الشرعي المبني على الكتاب والسنة وأقوال أئمة السلف، وعلمهم بالواقع

[١] أعلام الموقعين، (ج١/ص١٨٩-١٩٠).

الـذي هم في الأصـل يعايشـونه؛ قـال سـفيان بن عيينـة لابن المبـارك -عليهمـا رحمة الله-: (إذا رأيت النَّـاس قـد اختلفـوا فعليـك بالمجاهـدين وأهـل الثُّغـور، فـإنَّ الله تعـالى يقـول: {لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩])[١]، وقـال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل -عليهما رحمة الله-: (إذا اختلف النَّاس في شيءٍ فانظروا ماذا عليه أهل الثَّغر؛ فإنَّ الحقَّ معهم؛ لأن الله يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩])[٢].

فـ(منظـرو التيـار الجهـادي) هم الـذين حملـوا الكتـاب والسـيف بأيـديهم، وتقـدموا الصفوف، وقـادوا الجمـوع، وهجروا لذائـذ الدُّنيا الفانية، وآثروا ثواب الآخرة الباقية، وتركوا القصور والدور لهم مأوى، واختاروا الكهوف والجبال لهم سكنى؛ حفاظًا على دينهم، وتصـديقًا لأقـوالهم بفعـالهم، أمـا أن يبقى العـالم بعيـدًا عن سـاحات الجهـاد والواقع الذي يعيشه المجاهدين، مقيمًا في بلاد الكفار، ثم يفتي الأمة في مسائل، أدنى ما يقال فيها إنها مسائل اجتهادية قابلة للنظر يريد إلزام المجاهدين بها: فهذا لا يقبل ولا كرامة، بل إن أهل العلم قرروا أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد التي لا تُخالف نصًّـا أو إجماعًـا أو قياسًـا جليًّـا، ذكـر القاضـي أبـو الحسـن الماوردي في الأحكـام السـلطانية خلافًـا بين العلمـاء في أن من قلـده السـلطان الحسـبة: هـل لـه أن يحمـل الناس على مذهبه فيما اختلف فيه الفقهاء، إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد أم لا، يغير ما كان على مذهب غيره؛ فقرر: أن الأصح أنه لا يغير، وأنه لم يزل الخلاف في الفـروع بين الصـحابة والتـابعين فمن بعـدهم -رضـي الله عنهم أجمعين-، ولا ينكـر

---

[١] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (ج٩/ص٣٠٨٤)، وراه بنحوه ابن عدي في الكامل (ج١/ص١٨٥).

[٢] نقله ابن تيمية في مسألة في المرابطة بالثغور أفضل أم المجاورة بمكة، جامع المسائل (ج٥/ص.٣٥٨)، وابن مفلح في الفروع (ج١٠/ص. ٢٣٥).

محتسب ولا غيره[١]، [قال النووي:] (وكذلك قالوا: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصًّا أو إجماعًا أو قياسًا جليًّا، والله أعلم)[٢].

وقد سئل شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله-: عن حكم إلزام ولي الأمر الناس بمذهبه في مسائل الاجتهاد التي اختلف فيها العلماء؛ فأجاب: (ليس له منع النَّاس من مثل ذلك، ولا من نظائره ممَّا يسوغ فيه الاجتهاد، وليس معه بالمنع نصٌّ من كتاب ولا سنَّةٍ ولا إجماعٍ، ولا ما هو في معنى ذلك، لا سيَّما وأكثر العلماء على جواز مثل ذلك، وهو ممَّا يعمل به عامَّة المسلمين في عامَّة الأمصار، وهذا كما أنَّ الحاكم ليس له أن ينقض حكم غيره في مثل هذه المسائل، ولا للعالم والمفتي أن يلزم النَّاس باتِّباعه في مثل هذه المسائل، ولهذا لما استشار الرَّشيد مالكًا [في] أن يحمل النَّاس على مُوطَّئِهِ، في مثل هذه المسائل: منعه من ذلك، وقال: «إنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد تفرَّقوا في الأمصار، وقد أخذ كُلُّ قومٍ من العلم ما بلغهم»، وصنَّف رجلٌ كتابًا في الاختلاف فقال أحمد: «لا تسمِّيه كتاب الاختلاف، ولكن سمِّه كتاب السُّنَّة»، ولهذا كان بعض العلماء يقول: إجماعهم حجَّةٌ قاطعةٌ، واختلافهم رحمةٌ واسعةٌ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: «ما يسرُّني أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنَّهم إذا اجتمعوا على قولٍ فخالفهم رجلٌ كان ضالًّا، وإذا اختلفوا فأخذ رجلٌ بقول هذا ورجلٌ بقول هذا كان في الأمر سعة»، وكذلك قال غير مالكٍ من الأئمَّة: «ليس للفقيه أن يحمل النَّاس على مذهبه»، ولهذا قال العلماء المصنِّفون في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من أصحاب الشَّافعيِّ -رحمه الله- وغيره: «إنَّ مثل هذه المسائل الاجتهاديَّة لا تنكر باليد، وليس لأحد أن يلزم النَّاس باتِّباعه فيها،

---

[١] الأحكام السلطانية، (ص٣٥١).

[٢] شرح مسلم، (ج٢/ص٢٤).

ولكن يتكلَّم فيها بالحجج العلميَّة، فمن تبيَّن له صحَّة أحد القولين: تبعه، ومن قلَّد أهل القول الآخر فلا إنكار عليه»)[١].

كما بَيَّنَ شيخ الإسلام أن المسائل: (التي لم يعلم قطعًا مخالفتها للكتاب والسُّنَّة، بل هي من موارد الاجتهاد الَّتي تنازع فيها أهل العلم والإيمان؛ فهذه الأمور قد تكون قطعيَّةً عند بعض من بيَّن الله له الحقَّ فيها، لكنَّه لا يمكنه أن يلزم النَّاس بما بان له ولم يبن لهم)[٢].

وعليه: فما ذهب المجاهدون إليه في بعض المسائل الاجتهادية؛ كالعمليات الاستشهادية، وضرب الكفار وتبييتهم في عقر دارهم؛ ردعًا لهم، وكفًّا لشرهم عن المسلمين، وإن أدى تبعًا إلى قتل من لا يجوز قتله استقلالًا كالنساء والأطفال: لا يجوز الإنكار عليهم في ذلك، فضلًا عن الطعن والتشهير، وإصدار الأحكام الجائرة بالتبديع والتفسيق والتضليل؛ فقد أمرنا الله تعالى بالعدل مطلقًا ولو مع أبغض الناس إلينا؛ قال تعالى: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: ٨]، قال ابن القيم -رحمه الله-: (فإذا كان قد نهى عبادَه أن يحملهم بغضهم لأعدائهم على ألا يعدلوا عليهم، مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيفَ يسوغُ لمن يدّعي الإيمانَ أن يحمله بغضُه لطائفةٍ منتسبةٍ إلى الرسول تصيبُ وتخطئ على أن لا يعدلَ فيهم؟ بل يجرِّد لهم العداوة وأنواع الأذى، ولعله لا يدرى أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه علمًا وعملًا ودعوةً إلى الله على بصيرة، وصَبرًا من قومهم على الأذى في الله، وإقامةً لحجةِ الله، ومعذرةً لمن خالفهم بالجهل)[٣].

---

[١] مجموع الفتاوى، (ج٣٠/ص٧٩-٨٠).
[٢] المرجع السابق، (ج١٠/ص٣٨٣-٣٨٤).
[٣] بدائع الفوائد، (ج٢/ص٦٥٠).

والمجاهدين وإن خالفهم مخالف؛ فلهم من حقوق الإسلام بحسب ما هم عليه من الإيمان علمًا وعملًا، فكيف والقوم ما قاموا إلا بما أوجبه الشرع عليهم، وهم أسعد بالدليل وأشد اتباعًا له من المتكلم فيهم؟! كما أنهم ما خرجوا إلا لإعلاء كلمة الله والتمكين لدينه، وقد علم القاصي والداني صدق نواياهم وخلوص قصدهم، ولنا ظاهرهم وحسابهم على الله، وهذا مع ما شهد به العدو قبل الصديق من بذلهم أنفسهم وأموالهم نصرة لهذا الدين، وإعزازًا وتحملهم في سبيل ذلك من الابتلاء ما الله وحده به عليم.

كما أن المتكلم في هؤلاء القوم وإن خالفهم فيما ذهبوا إليه؛ يعلم يقينًا أنه يغيظون أعداء الله، وهم شجًا في حلوقهم، فكان الكلام فيهم إعانة عليهم لمن لا يرقبون في مؤمن إلًا ولا ذمة من أعداء الملة والأمة، وإن أراد المتكلم وجه الله بكلامه: فسبيله النصح، لا الطعن والتشهير والنبز والرمي بكل سوء وقبيح، والنصح قد علم طريقه كل عاقل، فضلًا عن أهل العلم، فكان الكلام في هؤلاء القوم بالطعن والنقص والذم ونحوه؛ ليس له من معنى: إلا أن يكون دخنًا في الدين، أو غلًّا للمؤمنين، أو دهنًا بالشرع، أو انتصارًا للنفس وأهوائها، ومن ذلك اتخادهم مطية لإظهار الاعتدال والوسطية المزعومة، والله يعلم المفسد من المصلح، وقد قال تعالى: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُون} [الزخرف: ١٩]، وليحذر العبد أن يأتي يوم القيامة وخصماؤه المجاهدون في سبيل الله، المدافعون عن دينه، الباذلون مهجهم حبًّا فيه وإرضاء له.

ولله در القائل:

إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي *** وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
سَتَعْلَمُ فِي الْحِسَابِ إِذَا الْتَقَيْنَا *** غَدًا عِنْدَ الْإِلَهِ مَنْ الْمَلُومُ[١]

[١] بيتين لقصيدة أبي العتاهية، بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، (ص٨٠). وانظر: البداية والنهاية، ابن كثير، (ج١٤/ص٣٩).

غير أن الطعن والتشهير والتجريح في هؤلاء القوم: هو المركب الأرغد، والفراش الممهد، والطريق المعبد، أما الدفاع عنهم، وإنصافهم وإعطائهم حقهم من الموالاة: فذاك درب لا تؤمن غوائله، ولا تحمد عواقبه.

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

تنبيه: الترتيب على الحروف الأبجدية عدا الكتب الستة.

القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.

كتب السنة النبوية وآثار الصحابة والتابعين وأهل العلم.

أ- الكتب الستة:

- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- سنن أبي داود.
- سنن الترمذي.
- سنن النسائي (المجتبى).
- جامع ابن ماجه.

ب- المسانيد والصحاح والمعاجم:

- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، طبعة دار الكتب العلمية.
- المسند، أحمد بن حنبل، طبعة مؤسسة الرسالة.
- المدخل إلى السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي.
- المعجم الصغير والأوسط والكبير، ومسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني.
- الموطأ رواية أبي مصعب الزهري، مالك بن أنس، طبعة دار التأصيل.
- سنن الدارقطني.
- صحيح ابن حبان، التقاسيم والأنواع، طبعة دار ابن حزم.
- مسند الدارمي.
- مسند البحر الزخار، أبو بكر البزار، طبعة مكتبة العلوم والحكم.
- مسند عبد الله بن المبارك، طبعة مكتبة المعارف.
- مسند الفاروق، ابن كثير، طبعة دار الفلاح.

د-المصنفات:

- مصنف ابن أبي شيبة.
- مصنف سعيد بن منصور، طبعة الدار السلفية (الهند).

- مصنف عبد الرزاق.

كتب الطبقات المسندة:
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، طبعة مكتبة الخانجي.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، طبعة دار السعادة.

هـ- كتب الرقائق وفضائل الأعمال المسندة:
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دار الصديق.
- الزهد، أحمد بن حنبل، طبعة دار الكتب العلمية.
- الزهد الكبير، أبو بكر البيهقي، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣.
- الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق الأعظمي.
- الفتن، نعيم بن حماد، طبعة مكتبة التوحيد.
- المنامات، ابن أبي الدنيا، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية.
- اليقين، ابن أبي الدنيا، طبعة دار البشائر الإسلامية.

القرآن وعلومه:
- أحكام القرآن، ابن العربي، طبعة دار الكتب العلمية.
- أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، طبعة دار الكتب العلمية، ط١.
- أسباب النزول، أبو الحسن الواحدي، طبعة دار الإصلاح، ط٢.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطبري، طبعة دار هجر.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، طبعة مؤسسة الرسالة، ط١.
- الكشف والبيان في تفسير القرآن، الثعلبي، طبعة دار إحياء التراث العربي.
- تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، طبعة دار الوطن.
- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، طبعة مكتبة نزار الباز.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، طبعة دار طيبة.
-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، طبعة مؤسسة الرسالة.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، طبعة دار ابن كثير.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، طبعة دار الشروق، ط٣٢.

الحديث وعلومه:

أ- علوم الحديث:

- الثقات، أبو الحسن العجلي، طبعة مكتبة الدار.
- الثقات، ابن حبان، طبعة دائرة المعارف العثمانية.
- الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي الجرجاني، طبعة الكتب العلمية، ط١.
- طبقات الحفاظ، شمس الدين الذهبي، طبعة دار الكتب العلمية.

ب- شروح الحديث:

- إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، طبعة دار الوفاء.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، طبعة دار ابن كثير.
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، طبعة مؤسسة الرسالة.
- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، طبعة مكتبة الرشد.
- شرح صحيح مسلم، أبو زكريا النووي، طبعة دار إحياء التراث.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، طبعة المكتبة السلفية.
- فيض القدير، المناوي، طبعة المكتبة التجاري الكبرى.
- عون المعبود، شمس الحق آبادي، طبعة دار الكتب العلمية.

العقيدة وعلومها:

- الإبانة الكبرى، ابن بطة العكبري، طبعة دار الراية.
- الاعتصام، الشاطبي، طبعة دار ابن الجوزي.
- البدع والنهي عنها، محمد بن وضاح القرطبي، طبعة مكتبة ابن تيمية.
- السنة، محمد بن نصر المرزوي، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، ط١.
- الشريعة، أبو بكر الآجري، طبعة دار الوطن، ط٢.
- الصواعق المرسلة الشهابية، سليمان بن سمحان، طبعة دار العاصمة.
- سبيل النجاة والفكاك من مولاة المرتدين والأتراك، حمد بن عتيق، طبعة مكتبة الهمة، ط١.
- شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، طبعة مكتبة الرشد.

الفقه:

أ- أصول وقواعد الفقه:

- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، طبعة دار الآفاق.
- الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، طبعة دار ابن الجوزي.
- الموافقات، الشاطبي، طبعة دار ابن عفان.
- أنوار البروق في أنواء الفروق، القرافي، طبعة دار عالم الكتب.
- جامع بيان العلم، ابن عبد البر، طبعة ابن الجوزي.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.
- مذكرة أصول الفقه، محمد بن أمين الشنقيطي، طبعة دار عطاءات العلم.

ب- الفقه:
- السيل الجرار، الشوكاني، طبعة دار ابن حزم.
- التمهيد، ابن عبد البر النميري، الطبعة المغربية.
- الأحكام السلطانية، الماوردي، طبعة دار الحديث.
- الفروع، ابن مفلح الجد، طبعة مؤسسة الرسالة.

مصنفات ابن تيمية:
- اقتضاء الصراط المستقيم، طبعة دار عالم الكتب.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول، المكتبة الشاملة.
- الفتاوى الكبرى، طبعة دار الكتب العلمية.
- جامع المسائل، طبعة عطاءات العلم.
- مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن القاسم.

مصنفات ابن قيم الجوزية، طبعة عطاءات العلم.
- أعلام الموقعين.
- الطرق الحكمية في السياسية الشرعية
- الفوائد.
- بدائع الفوائد.
- تهذيب سنن أبي داود.

الرقائق والمواعظ:

- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، طبعة دار المنهاج، ط١.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي، طبعة دار الفكر.
- حجة الله البالغة، الدهلوي، طبعة دار الجيل.
- ذم الكلام وأهله، أبو إسماعيل الهروي، طبعة مكتبة الغرباء الأثرية.
- صفوة الصفوة، ابن الجوزي، طبعة دار الحديث.
- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، الشعراني، طبعة دار القلم العربي.

التاريخ والسير:

أ- السيرة النبوية

- أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها، ابن فارس، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق.
- أعلام النبوة، الماوردي، طبعة دار هلال.
- السيرة النبوية، ابن هشام، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢.
- دلائل النبوة، أبو نعيم الأصفهاني، طبعة دار النفائس.
- دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، طبعة دار الكتب العلمية.
- مغازي الواقدي، محمد بن عمر الواقدي، طبعة دار الأعلمي.

ب-تاريخ:

- البداية والنهاية، ابن كثير، طبعة دار هجر.
- الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة المقدسي، طبعة مؤسسة الرسالة.
- تاريخ طبق الحلوى وصحافة المن والسلوى، الوزير الصنعاني، طبعة دار المسيرة.
- تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر الطبري، طبعة دار المعارف، ط٢.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر، طبعة دار الفكر للطباعة.

ج- التراجم والطبقات:

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض اليحصبي، طبعة مطبعة فضالة، ط١.
- ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب، مكتبة العبيكان.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، طبعة الرسالة.
- مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي، طبعة دار هجر، ط٢.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان، طبعة دار صادر.

- أنساب الأشراف، البلاذري، طبعة دار الفكر.

اللغة العربية:

أ- الأدب العربي

- الأصمعيات، الأصمعي، طبعة دار المعارف.
- الأعمال الكاملة لمحمود غنيم، طبعة دار الغد العربي.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، طبعة دار الفكر، ط٢.
- الأمالي، أبو علي القالي، طبعة دار الكتب، ط٢.
- البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، طبعة دار صادر، ط١.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، طبعة دار إحياء التراث.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري، طبعة دار السراج، ط٢.
- بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، طبعة المكتبة الشاملة.
- جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، طبعة نهضة مصر.
- عيون الأخبار، ابن قتيبة، طبعة دار الكتب العلمية.
- يتيمة الدهر، أبو منصور الثعالبي، طبعة دار الكتب العلمية، ط١.

ب- قصائد:

- ديوان أبي فارس الحمداني، طبعة دار الكتاب العربي.
- ديوان أبي الأسود الدؤلي، جمع أبي سعيد السكري، طبعة دار هلال.
- ديوان أبي تمام الطائي، طبعة نظارة المعارف العمومية.
- ديوان الشافعي، طبعة دار الأرقم.
- وامحمداه إن شانئك هو الأبتر، حسين بن سيد عفاني، طبعة دار العفاني، ط١.

لا تنسوا إخوانكم من الدعاء



